عبد الوهاب مطاوع



الحب فوق البلاط

مدبولى الصغير

الحب فوق البلاط

عبد الوهاب مطاوع

الحب فوق البلاط

الناشر: مدبولى الصغير

الحب فوق البلاط

الناشر: مدبولى الصغير

٤٥ شارع البطل احمد عبد العزيز

تليفون: ٢٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠

المؤلف: عبدالوهاب مطاوع

الغلاف: عاطف منصور

الجمع والتنفيذ الفنى: عفت إبراهيم

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/٤٣٢٠

الترقيم الدولى: 4 - 024 - 286 - 977

"أمن أجلنا يا رب جعلت الليل
شديد العمق؟
أمن أجلى جعلت الهواء دافئا..
ونور القمر يتهادى
إلىّ من النافذة فيغمرنى بنبض
من السحر؟
رب إن كان للحب حدٌّ فهو من
صنع البشر
وليس من صنعك
ومهما يظهر حبى آثما فى
أعين الناس
فألهمنى الإيمان بأنه عندك
طاهر نقى"

من مناجاة للقس البروتستنتى بطل رواية «السيمفونية الريفية» للأديب الفرنسى أندريه جيد يتحدث فيها عن حبه الطاهر للفتاة العمياء «جرترورد»!

١

نظـرة جامـدة

نهضت من نومها فى موعدها اليومى مثقلة الرأس بالصداع وخائرة القوى كحالها منذ أيام. ارتدت روبها الأزرق الفاتح فوق قميص نومها ودلكت ما تحت عينيها برفق كأنما تنفض عنهما أثر النوم القلق المضطرب، ثم رمقت زوجها النائم فى فراشه بنظرة جامدة كأنما تنكر عليه نومه العميق المطمئن وغادرت الغرفة.

خرجت من الحمام إلى المطبخ فوضعت أبريق الماء فوق النار والخبز فى الفرن وفتحت الراديو فانسابت منه كلمات أغنية عمقت من إحساسها بالشجن.

«كل عام وأنت بسلامة وخير.. سلامة وخير يا أمى» الكلمات جميلة لكن الأثر غامض وحزين ويجدد الآلام.

توارت ذكرى الأم فى مخيلتها فلم تعد تذكر عنها الكثير، ومن بعدها تراجعت صورة الأب حتى تحولت إلى ذكرى قديمة.. وها هى الأيام تنذر بآلام جديدة.

على غير انتظار!

ترقرقت دمعة فى عينيها مع تصاعد إحساسها بالشجن، فغادرت المطبخ إلى غرفة «الأبناء». رمقت «هادية» نائمة متكورة فى فراشها كعادتها و«راضى» الذى يطيح كل ليلة بالغطاء عنه مهما ابتكرت من حيل لتثبيته بحنان ممتزج بالخوف ثم بدأت بإيقاظ هادية الأسرع استجابة دائما..

وبدأت جهادها اليومى مع راضى. «هادية» أكثر مسالمة وأكثر عاطفية.. اما «راضى» فهو متعِب قليلاً لكنه طيب ويعبر عن مشاعره بالتصرفات وليس بالكلمات. غادر الابنان غرفة نومهما إلى الحمام فرجعت إلى المطبخ لإعداد الإفطار. أجمل أوقات يومها حين تجمعها مائدة الإفطار كل يوم بهما فيتبادلون الحديث والمداعبات والأخبار ثم يخرج الابنان إلى المدرسة فتمد إفطار زوجها وتجلس إليه لتشاركه قهوة الصباح. يئس منذ سنوات من استجابتها لرجائه بأن تنتظره لتناول الإفطار معه، وسلَّم برغبتها فى مشاركة «طفليها» إفطارهما لكى تشجعهما على تناوله.

فى زمان سابق كانت تشرف بنفسها على دخولهما الحمام.. واغتسالهما وارتداء ملابسهما. لكن ما أسرع ما يكبر الأبناء ويعتمدون على أنفسهم فى مثل هذهِ الأشياء الجميلة!

كبرت «هادية» و«راضى» سريعاً.. واعتمدا على نفسيهما فى أشياء كثيرة لكن القلب لا يسعد أبداً بتراجع أهميته لدى الأعزاء!

جلس الثلاثة إلى مائدة الإفطار.. ومازال صدى كلمات الأغنية الحزينة يثقل مشاعرها بالشجن.. فعزفت عن تناول الطعام وراحت تحتسى الشاى فى صمت وهى ترقب «طفليها»

فى أسى غامض!

تنبهت من أفكارها على صوت هادية يسألها فى عطف:

مالك ياماما؟

فاغتصبت ابتسامة شاحبة وطمأنتها إلى أنها على خير ما يرام!

«هادية» أكثر رقة من «راضى» لكن راضى لا يخلو أيضا من حنان يعبر عنه عند الضرورة بطريقته الخاصة.

تسألنى عما بى.. فبماذا أجيبها؟ كيف أشرحه لها وكيف تتفهم الصغيرة عمق أحزان الكبار؟

بى إحساس قديم باليتم والانكسار.. وخوف جديد من الغدر وتقلبات الأيام! فقدت أمى وأنا طفلة صغيرة.. وتربيت فى بيت عمتى مع أبنائها..

وبعد سنوات قليلة رحل أبى أيضا عن الحياة فترسخ فى أعماقى الخوف من عثرات الطريق. لم تكن عمتى قاسية لكنى كنت أيضا عبئاً لا يضيق به أحد.. ولا يرحب به أحد فى نفس الوقت.. وشتان بين إحساس الابن بحقه على أبويه.. وبين إحساس «الضيف» الذى لا يحقُّ له أن يطالب بما لا يقدمه له مضيفه طواعية، أمضيت طفولتى وصباى أشعر بأنه لا حق لى على أحد ولا أطالب بشىء، وحين تقدم لى زوجى الأول لم أكن مرحبة به لكنى لم أجرؤ على رفضه

لميزاته التقليدية.. ولأن الرفض ترف لا يملكه إلا الأبناء وحدهم وليس «الأعباء»! حتى ابنه عمتى المتمردة ثارت علىّ وقتها واتهمتنى بالضعف والتخاذل وطالبتنى بالرفض والاحتجاج.. فلم أستجب لدعوتها وواصلت الطريق بلا حماس. كان معيداً بنفس كليتى ويستعد للسفر للخارج بعد شهور لإعداد رسالة الدكتوراه وتم زفافى إليه قبل شهور من سفره ثم سافر إلى بعثة ورجعت إلى بيت عمتى أحمل ثمرة الزواج فى أحشائى.. وبعد شهر آخر اكتشفت وفاة الجنين قبل مولده وكدت أفقد حياتى فى جراحة الإجهاض الخطرة.

انتظرت دعوة زوجى لى للحاق به حيث يقيم كما كان الاتفاق بيننا.. فبدأت المراوغة وإبداء الأعذار. كان مفروضا أن يرجع فى أجازة لمدة شهر بعد عامين فلم يرجع.. ولم يستقدمنى إليه فمضت أربع سنوات كاملة ولا شىء يربطنى به سوى الخطابات! ثم تكشف الغدر سافراً بعد سنوات الانتظار فرفض العودة نهائياً وفصل من كليته وتزوج هناك.. وأرسل إلىّ بورقة الطلاق!

تجرعت مرارة الغدر والخذلان وتعرضت لمتاعب صحية ونفسية جسيمة انتهت بتأكدى من استحالة إنجابى مرة أخرى، فبدا لى واضحاً أن الحياة لم تسمح بعد بالأمان. تقدم لى زوجى الحالى بعد طلاقى وتقدم لى غيره لكنى فضلته على الآخرين لأسباب لم يعارضنى فيها أحد حتى

ابنة عمتى المتمردة.

فقد كان أبا لطفلين صغيرين حائرين هجرتهما أمهما وتزوجت ورحلت مع زوجها الجديد. كانت أصغرهما طفلة عمرها ٣ سنوات وأكبرهما طفل عمره أربع هما أنت وراضى.. فخفق قلبى لكما قبل أن أراكما، وقدرت أن أباكما سوف يحتاج إلىّ أكثر مما أحتاج إليه ولن يغدر بى ذات يوم كما فعل زوجى السابق، فتزوجته وحرصت على نجاح زواجى منه مهما كانت العقبات.. وأفرغت فيكما كل أمومتى المحرومة وكل إشفاقى عليكما من افتقاد الأمان! وأحببتكما من قلبى وسعدت بلفتات حبكما الصغيرة لى، وبالغت فى رعايتكما والعناية بكما حتى أصبح ذلك موضع نقاش مستمر بينى وبين أبيكما الذى يريد لكما الاعتماد على نفسيكما. عارضنى حين رغبت فى التفرغ لكما فلم أستجب لمعارضته وحصلت على إجازة من عملى بدون مرتب وتفرغت لكما منذ سنوات. وكلما جاء موعد تجديد الإجازة تجدد الجدال بينى وبينه.. وحسمته بالإصرار على أن أصبح لكما أماً متفرغة حتى سألت نفسى أكثر من مرة:

هل أحب زوجى لأنه أباكما.. أم أحبكما لأنكما ابناه أو لأنكما أشبعتما حرمانى العاطفى من الأطفال؟

فهل يرضيك بعد كل ذلك ياهادية وبعد ثمانى سنوات طويلة من الحب والأمان أن أكتشف منذ أيام أن زوجى على صلة بأمكما وأنه يرتب معها لأن تزوركما فى الصيف القادم وتراكما لأول مرة منذ هجرتكما بلا ندم؟

لقد كان صباحاً كهذا الصباح الذى يجمعنا الآن وبعد أن خرجتما إلى المدرسة، وخرج أبوكما إلى عمله.. بدأت أرتب غرفة النوم واخرجت من دولاب الملابس بدل زوجى التى سأكويها.. وكعادتى قبل أن أفعل ذلك فتشت البدل حتى لا أكويها وبها شىء يتكسر كما حدث من قبل مع نظارته.. فإذا بى أجد فى جيب إحدى بدله خطاباً بل خطابات من زوجته السابقة تقول فيها إنها «تشتاق» إلى رؤيتكما وتحدد الصيف القادم موعداً لعودتها مع زوجها وولديها منه «وتشكر» أباكما لترحيبه بأن ترى ابنيها «الغاليين» بعد كل هذه السنوات؟

ابناها الغاليان؟ وأين كانت إذن منهما حين كانا يحتاجان إليها وأنت ياهادية فى الثالثة.. وأخوك فى الرابعة من عمره؟ ولماذا هان عليها الابنان «الغاليان» فتركتهما لأبيهما وتركته ولم تستجب لتوسلاته بألا تحطم زواجها وتتخلى عن أبنائها؟ومتى رجعت هذه الصلة بينها وبين زوجى عن طريق الخطابات؟ ولماذا أخفاها

عنى؟ ولماذا لم يصارحنى بالأمر منذ البداية؟ بل ولماذا يبدو فى الفترة الأخيرة وكلما اقترب موعد عودتها مضطرباً قلقاً كأنما يهم بأن يصارحنى بشىء هام ثم يتخاذل عنه فى اللحظة الأخيرة؟

هل يخشى غضبى من هذه الاتصالات؟.. هل يخشى رفضى لهذه العلاقة الجديدة التى ستقوم بينكما وبين تلك المرأة الأخرى التى تخلت عنكما وأنتما فى أشد الحاجة إليها؟

إننى «لا أمانع» بالطبع فى أن تراكما تلك السيدة وفى أن تريانها.. ولا فى أن تقدم لكما ـ كما قالت فى خطابها ـ بعض الهدايا والملابس حتى ولو كرهت ذلك فى أعماقى؟ لكن هل الأمومة مجرد لقاء خاطف لعدة ساعات أو أيام وبعض الهدايا والملابس مهما غلا ثمنها؟

وأين كانت تلك المرأة وأنا أغسل لكما ملابسكما الداخلية الملوثة بحب وحنان وأنشرها على حبل الغسيل.. وأعدُّ لكما أنواع الطعام التى تحبونها وأصطحبكما إلى مدرسة الحضانة فى يومكما الأول بها وأرفض الانصراف منها رغم إلحاح المدرسة لأنكما طلبتما منى ذلك؟ بل وأين كانت وأنا أحملكما من عيادة طبيب إلى طبيب آخر لأعطيكما الأمصال اللازمة فى مواعيدها المقررة، وحين ذاكرت لكما دروسكما.. وسهرت بجواركما حتى الصباح إذا

أصابت أحدكما وعكة.. بل وأين جنونى وهذيانى وخوفى وقلقى ودعائى لربى بخوف ورجاء حين مرضت أنت يا هادية مرضاً قاسياً عنيداً طال أكثر من شهر وتدهورت صحتك حتى سلمت أمرى فيك لربى وكدت أفقد صوابى؟

والآن فقط تشتاق إليكما بعد ٨ سنوات طويلة وبعد أن استوى كل منكما ابناً رائعاً مهذباً تفخر به كل أم؟

إننى منذ علمت بما يدبره زوجى معها.. وأنا لا أطيق أن تلتقى عيناى بعينيه، وأختلس النظر إليه من حين إلى آخر فى غيظ مكتوم، وأحس أنى أريد أن أنشب أظافرى فى وجهه كلما اشتدت علىّ مخاوفى أن تتسربا من بين أصابعى أو تتوجها ببعض مشاعركما إلى تلك المرأة الأخرى التى تريد الآن قطف الثمار بغير أن تروى شجرتها بالعرق والدموع.. فهل هذا يا ربى عدل السماء؟ إن عمتى تقول لى إن هذا من حقها مهما كانت أما سيئة أو أنانية وأنه من حقكما أيضاً كأطفال مهما كان ارتباطكما بى.. وأنا لا أعترض على حق أحد لكنى كنت أتمنى فى أعماقى أن تجىء «المبادرة» من جانبى فأحدثكما طويلاً عن حقوق الأم على أبنائها حتى ولو كانت قد تخلت عنهما.. وكنت أتمنى ولازلت أتمنى أن يجىء الإنكار من ناحيتكما.. ويجىء نداء «الواجب» الذى لا مفر منه من ناحيتى أنا.. فهل تفعلان حقاً؟ وهل تؤكدان لى أن أمومتى لكما لن تضيع هباء ولن

تنسيا أبدا أننى أمكما الحقيقية مهما توسلت «الأخرى» بالوسائل والمغريات؟

إن عينىّ تدمعان حين تناديانى بالكلمة الحبيبة «ماما».. فهل سأظل كذلك بالنسبة لكما مهما جرى من أحداث؟ أم سيجىء يوم أشعر فيه بأن الخيوط التى تربطكما بى قد انتقلت إلى يد تلك «المرأة الأخرى» وأنتما أثمن الأشياء فى عالمى الصغير؟ لقد بكيت فرحاً حين تغاضبت ذات مرة مع أبيكما فبكيت أنت يا هادية بالدمع الغزير وقبلتنى بحنان وقلت لى فى عطف مازلت أسترجع لمسته الحانية:

معلش يا ماما! وبكيتُ أكثر وأكثر حيت سمعت «راضى» الذى لا يحسن التعبير عن مشاعره بالكلمات «يتشاجر» مع أبيه من أجلى! فهل تسرق الأخرى مشاعركما الغالية هذه نحوى؟

إننى أكاد أجن كلما تصورت ذلك.. وأرقب الأيام خائفة مما سوف تحمله لى.. فهل تسعدان قلبى الحزين بتبديد مخاوفى؟

تنبهت الأم فجاة من استغراقها فى أفكارها على «راضى» يضغط على يدها لتلتفت إليه.. ويقول لها:

مـــامـــا.. ماما لدينا مباراة كرة قدم اليوم بعد انتهاء الدروس وسأشارك فيها وسيفوتنى موعد أتوبيس المدرسة

فى العودة فهل تطلبين من بابا أن يرجعنى إلى البيت؟

تأملت ملامحه المتحفزة دائماً التى تعكس جانباً كبيراً من ملامح أبيه للحظات فتعجلها الإجابة خائفاً من الرفض:

ـ ماذا قلت ياماما؟

فاستردت نفسها سريعا وتسللت الابتسامة إلى وجهها رغما عنها وقالت:

«لن أقول لأبيك شيئاً وسأجىء أنا لاصطحابك إلى البيت».

فابتسم راضياً وسعيداً وشكرها، ثم نهض مع هادية عن المائدة وحمل كل منهما حقيبته وهمّا بالخروج فاستمهلتهما «أمهما» كعادتها اليومية ثم أسرعت إلى غرفة النوم ورجعت حاملة زجاجة عطرها المفضل فرشت رذاذها على وجه هادية وشعرها.. واستجابت لرغبة راضى التقليدية فركزت رذاذ عطرها على يديه ليمسح بهما وجهه كما يفضل دائماً، وودعها الطفلان باسمين وغادرا الشقة. راقبتهما باهتمام حتى هبطا درج السلم ثم أغلقت الباب وراءهما وهمت بالاستدارة لتدخل المطبخ وتعد إفطار زوجها قبل أن توقظه ففوجئت بصوته يجىء إليها من خلفها متسائلا:

ـ خرج الأولاد؟

فأجابته وهى تتجنب النظر ناحيته.. وتتجه إلى المطبخ:

ـ نعم خرجوا منذ لحظات.

ثم دخلت المطبخ فوضعت أبريق الماء فوق النار وانشغلت بإعداد إفطار زوجها وقهوتها وصدى سؤاله مازال يتردد فى أذنها:

خرج الأولاد؟ فتجيبه فى خيالها بأمل ورجاء كأنما تطمئن نفسها: نعم خرجوا.. لكنهم سيعودون إلىّ مرة أخرى.. وسيعودون إلىّ دائما مهما كانت مرارة الغدر.. وقدرة الخداع!

٢

الحب فوق البلاط

- إلى متى تظلين تهربين من العمل بنفس هذه الحجج السخيفة ثم تعودين خائبة من كل عمل تلحقين به بعد أيام؟

- لست أتهرب من العمل.. ولكن من «أشياء أخرى» تعرفينها جيداً.. وليس ذنبى أننى لا أصادف من أصحاب الأعمال إلا من يطلبون «هذه الأشياء»!

- وماذا تفعل كل البنات اللاتى يعملن فى كل مكان.. هل كلهن غير شريفات؟

- لا شأن لى بغيرى فلا تزيدى من كربى أرجوك ياأمى.

قالت الجملة الأخيرة ثم غادرتها فى مجلسها التقليدى فوق الكنبة البلدية التى تتصدر صالة الشقة الكالحة ودخلت إلى غرفة مجاورة لباب المطبخ وصوت أمها يتمتم فى ضيق:

- عجائب!

وضعت حقيبة يدها «الأثرية» فوق مائدة خشبية صغيرة وخلعت فستان الخروج القديم ووضعته فى الدولاب وارتدت ثوباً منزلياً أكثر قدماً وجلست فى فراشها قانطة لا تدرى ماذا تصنع بنفسها.

ومن الصالة جاءها صوت أمها فى محاولة مألوفة «للصلح» بعد كل نزاع مماثل:

- وفاء.. ألن تأتى لتشربى الشاى معى؟

فترددت فى أن تجيب نداءها بعض الوقت ثم آثرت

السلامة وقالت من فراشها:

ـ سآتى بعد قليل يا أمى!

دارت بعينيها فى غرفتها التى ينطق كل شىء فيها بالحرمان وتشاركها فيها أخت تدرس بالمرحلة الإعدادية تقاسمها الفراش الوحيد.. وأخت ثالثة بالمرحلة الإبتدائية تنام عند قدمى الأختين بعرض الفراش.. وتساءلت فى اكتئاب.. إلى متى يستمر هذا العناء ياربى؟

كلما ظنت أن الحياة قد رقت لها أخيراً واستقرت فى عمل جديد تأمل أن تخفف بجزء من مرتبها عنه من جفاف حياة أسرتها وتسهم بالجزء الأكبر فى نفقات جهازها الذى لم تشتر منه خيطاً واحداً.. بدأ صاحب العمل يتودد إليها.. فتتجاهل غرضه إلى أن يصل معها إلى النقطة الحرجة.. فتترك العمل باكية على دخلها منه وتواجه نفس المحنة مع أمها من جديد.

عكست مرآة الدولاب العتيق وجهها الجميل وجسمها الملفوف.. فتأملتها ساهمة وتولتها فجأة نوبة سخط عارمة فكادت أفكارها تتحول إلى كلمات مسموعة... نعم جميلة ومغرية وحتى شقيقتاى لم تحظيا بنصف جمالى، وأعرف ذلك منذ طفولتى ومنذ كانت أمى تنظر إلىّ بإعجاب وتقول بحسرة:

جميلة ورب الكعبة كأنك من بنات العِزّ.. فليكن حظك في الحياة بمثل هذا الجمال!

لكن الجمال لم يفتح لى الأبواب كما تمنت لىّ أمى وإنما أغلقها فى وجهى أكثر من مرة. فلقد صادف هذا الجمال السخى روحاً جادة تنفر من العبث.. وقلباً لا يعرف إلا الإخلاص لمن يحب.

أما فتى القلب البائس فقد ارتبطتُ به منذ سنوات وفضلته على الجميع وصمدت لكل المغريات.. وحين أنهت دراستها تقدم لها خاطباً فرفضته أمها بإصرار قائلة لها أن «جمالها» يستحق من هو أفضل منه لأن أباها موظف صغير لا يملك شيئاً ولن يستطيع أن يسهم فى جهازها بمليم. والفتى فقير مثلها ولن يقدر على توفير متطلبات الزواج. فتمسكت بفتاها حتى النهاية.. وأيدّها أبوها ضد رغبة أمها فسلّمت بما أرادت وهى تخلى «مسئوليتها» عن هذه البنت «الفقرية» التى تعرف قدر نفسها. وتمت خطبتها لعصام وقدم لها شبكة ذهبية متواضعة ونجح بمساعدة أبيه الموظف بالمعاش فى أن يقدم لها بعد عام من الخطبة «مهراً» لا بأس به فى مثل ظروفه، لكن قسوة الحياة استهلكت مهر الابنة خلال فترة الانتظار وبجرأة غريبة راحت الأم تنفق من مهر البنت على مطالب أخواتها الضرورية.. وتطلب من

الفتى بصراحة عجيبة أن يعتمد هو وخطيبته على نفسيهما فى إعداد الجهاز لأن الأسرة لا تستطيع أن تقدم لهما منه شيئاً..

وتقبّل الفتى الأمر الواقع بلا سخط وكبح كل محاولة من أبيه وأمه للاعتراض وبدأت وفاء تخرج للبحث عن عمل وتتقدم لمسابقات الوظائف فكان جمالها يفتح لها أبواب الاختيار بسهولة فى البداية ثم لا يضمن لها الاستمرار طويلاً فبعد أسابيع وربما شهور تتغير معاملة صاحب العمل لها وتبدأ الدعوات للخروج.. والاستمتاع. فى البداية كانت تجفل من كل لمحة معاملة خاصة يبديها نحوها صاحب العمل فتسرع بمغادرة المكان وتحاسبها أمها على ترك العمل بغير أسباب جدية ويتجدَّد الخلاف بينهما إلى أن يحسمه الأب لصالح ابنته الجميلة. ثم علمتها الأيام أن تطيل حبال الصبر على أصحاب المكاتب التى تلتحق بها وتتجاهل لفتاتهم وإشاراتهم لتطيل فترة عملها لديهم إلى أقصى حد ممكن حتى إذا حانت لحظة الاختيار.. اختارت نفسها وحبها ورجعت باكية إلى البيت لتجد نظرات أمها الانتقادية فى الانتظار.

ويوماً سألتها الأم فى تعجب:

ولماذا تتصورين أن كل الرجال يطاردونك.. هل أنت السفيرة عزيزة؟

فأجابت عنها أفكارها بغير كلام.. ليس الجمال وحده هو الذى يغرى بى أصحاب العمل يا أمى.. لكنها رائحة الفقر التى تصاحب هذا الجمال وتهيىء لهم أن «مِثلى» لا تصمد طويلاً لإغراءات الحياة وهذا هو ما يؤلمنى أكثر من أى شىء آخر!

إنك لا تعرفين مرارة الإحساس بأن ما يغرى الآخرين بك ليس جمالك وحده وإنما أيضا ضعفك وحاجتك وفقرك.. فهل تفهمين؟

ويوم قال لىّ صاحب معرض السيارات الذى عملت معه ثلاثة شهور:

قولى نعم فقط وسوف تستبدلين هذا الفستان القديم البالى بدولاب كامل من الفساتين.. وسوف.. وسوف.

فكانت إجابتى عليه أن طلبت أجرى عن الأيام التى عملتها معه من الشهر وانصرفت من مكتبه مودعة بسخريته اللاذعة، وبكيت حتى احمرت عيناى وأنا أدافع عن نفسى أمامك بأنى لا أتوهم أشياء غير حقيقية ولست معقدة من الرجال كما تتصورين، ولولا إدراكى لقسوة الظروف لاتهمتك بأنك تدفعيننى دفعاً إلى طريق التساهل بحسابك العسير لى فى كل مرة حين أترك العمل.

أما صاحب مكتب الاستيراد الذى عملتُ معه أربعة

شهور فلقد كدت أفقدك يا أمى نهائياً بسببه لولا حنان أبى وطيبته. فلقد طال عملى معه لأنه عاملنى باحترام وأبوّة فى البداية.. لكنه بعد شهرين بدأ يسألنى عن أسرتى وحياتى الخاصة وخطيبى.. وينصحنى بالتخلص منه.. وبأن يبحث كل منا عن حظه مع طرف آخر ظروفه أفضل لأننا إذا استمرينا فى مشروع زواجنا مع ظروف كل منا فلن نتزوج قبل «قرن» من الزمان وقدَّرتُ نصيحته وشكرته عليها لكنى تمسكت بحبى حتى النهاية فإذا بى أفاجأ به جالسا بين يديك فى صالة شقتنا المتواضعة وأنت لا تسعك الفرحة به وبهدية «التعارف» التى قدمها لك وجبل «الجاتوه» الذى جاء به ثم تزفين لى «البشرى» بأنه قد جاء يخطبنى منك.. وسوف ينتشل أسرتنا كلها من الحاجة.. ويوفر لى كل ما تحلم به فتاة جميلة مثلى. وسأبقى وسط أهلى كما كنت ولن يتغير فى حياتى شىء سوى أنه سوف «ينقلنا» جميعاً إلى شقة حديثة تكون لى فيها غرفة خاصة مستقلة هى عش زواجى به.. لأنه زوج وأب لأبناء فى المدارس والجامعات ولا يريد لهم أن يعرفواأنه قد تزوج بشابة جميلة، وبقدر دهشتى للعرض كانت دهشتى لفرحتك به ومحاولتك إقناعى بقبوله حتى ذكّرتك بأن قرانى معقود على شاب آخر منذ عامين وأننى أحبه ولن أتزوج غيره.. ولو تزوجت سواه فلن أكون زوجة ثانية وسرية لرجل متزوج وأب لأبناء.

وغضبت منك يا أمى كما لم أغضب من قبل وهجرت بيتى إلى بيت عمى القريب واعتصمت به وتوقفت عن الذهاب إلى العمل إلى أن جاءنى أبى وتعهد لى بألا تفاتحينى فى هذا الأمر مرة أخرى.. فلماذا تقسين علىَّ يا أمى من جديد وتحاسبينى على تركى للعمل الأخير لنفس الظروف؟

لاحقها صوت أمها مرة أخرى فأيقظها من أفكارها الكئيبة.. خرجت إلى الصالة المتداعية وجلست إلى جوار أمها وتناولت كوب الشاى فى صمت، فرمقتها أمها بظل ابتسامة ثم قالت لها لتنهى الموقف بعد أن علمتها الظروف أن «تخشى» غضبها ومقاطعتها الصامتة الطويلة لها:

- اشربى الشاى يابنت الأكابر ولا تحزنى... فسوف يفرجها ربّك من باب آخر!

راحت تحتسى الشاى فى صمت فرنّ جرس الباب بعد قليل ونهضت لتفتحه وابتسمت لأول مرة منذ رجعت للبيت. دخل شاب أسمر اللون طويل القامة تشى ملامحه بالطيبة والوسامة.. وعادت به إلى مجلس أمها وهو يقول لها:

- كيف حالك يا «حماتى»؟

فأجابته بابتسامة «معبّرة» وهى تشير برأسها إلى ابنتها:

- أنا بخير.. لكن هناك «أناسا» آخرين يحملون هموم الدنيا فوق رؤوسهم!

فالتفت الشاب إلى فتاته وسألها ببراءة:

- ماذا جرى؟

فنهضت وهى تقول:

- لا شىء.

ثم دخلت غرفتها لترتدى ملابسها.

عاد بنظره إلى الأم فقالت له باقتضاب: نفس القصة القديمة.. تركت اليوم العمل ولن ترجع إليه.

فأحنى رأسه صامتا فسمعها تسأله:

- وانت... ألم يأذن الله بالفرج بعد؟

فأجابها محرجاً من إثارة «الموضوع»:

- ليس بعد ياحماتى.

والتزم الصمت حتى عادت فتاته مرتدية فستان الخروج واستأذنت من أمها وخرجت معه.

فى الطريق سألته بإشفاق: لماذا تبدو واجما.. هل سألتك أمى عن نفس الموضوع مرة أخرى؟

فأجابها بإشفاق: نعم.. لكنها لم تزد على السؤال فلا تضيفى إلى أسباب كدرك سبباً جديداً.

أدركت على الفور أن أمها روت له عن تركها للعمل فتأبطت ذراعه.. وجذبتها إليها حتى استشعرت مسَّ كوعه

لصدرها كأنها تحتمى به من الضعف والذئاب وقسوة الظروف، فاستشعرت الراحة لأول مرة منذ عادت للبيت.

كانت نزهتهما لا تتجاوز فى أحيان كثيرة المشى فى الشوارع المحيطة بالبيت أو زيارة أبويه فى بيتهما القريب. وفى المناسبات البعيدة كانا يذهبان إلى السينما أو إلى كازينوا مطل على النيل، وشعر عصام بأن «الموقف» يحتاج اليوم إلى شىء من الترويح فعرض عليها دعوتها للذهاب للسينما لكنها لم تتحمس للاقتراح ومالت به إلى مقهى بلدى لم يكن مألوفاً جلوس الفتيات به وطلبت منه أن يستريحا فيه لتتحدث إليه فى أمر جاد رافضةً اقتراحه بالذهاب إلى كازينو النيل. انتحيا طرفاً من الرصيف وجلسا وسط دهشة بعض الرواد ثم غرقت فى صمتها فترة ورفعت رأسها إليه وقالت له فجأة: عصام لنتزوج بأسرع وقت... غداً... أو اليوم إذا استطعنا.

فأجابها مندهشاً:

- تمزحين.. أليس كذلك؟

لكن تساؤله تراجع أمام جديتها الصارمة وهى تقول له:

- أنا جادة كل الجد.. فأنت وأنا لا أمل لنا فى المساعدة من أسرتى أو أسرتك.. ولقد وعدك أبواك بأن يخليا لك شقتهما ويعودا للحياة فى بلدتهما بالأقاليم فى أى وقت

نتـزوج فـيــه.. ونحن لن ننجح فى شـراء إبـرة من الجـهــاز المطلوب قبل سنوات طويلة.. إذن فلنتـزوج الآن.. وليـرحل أبواك مشكورين إلى بلدتهمـا.. ولنبدأ معاً من الصفر ونبنى عشنا ونشترى مستلزمات الزواج قطعة قطعة.. وبالتقسيط.. والآن بلا تردد فهـذه فـرصتنا الوحيدة بعد ٦ سنوات من الحب والخطبة والارتباط.

ابتـهج باطنه بالاقتـراح السـعيـد الذى يتـرجم حبـهـا وتمسكها به رغم سوء الأحوال لكنه أشفق عليها من صعوبة الحياة بلا أية إمكانات وذكرّها بأن أبويه حين يرحلان عن الشقة الصغيرة المكونة من غرفتين بالدور الأرضى فسوف يأخذان مـعهمـا أثاثهمـا العتيق وحتى أدوات المطبخ أيضا ليؤثثا بها غـرفتى السطح فى بيت أسرة أبيه القديم، وبذلك ستكون شقة الزوجية التى سيبدأن فيها حياتهما «على البـلاط» حين يتـزوجـان. فكيف تستطيع احتمـال الحيـاة هكذا. وحتى الأغطية لن يجداها فى ليل الشتاء لأنهمـا لا يستطيعـان شـراء شئ الآن بمرتبه الذى لا يتجاوز مـائة وسبعين جنيها.. حدثها بكل ذلك ثم استطرد:

.. فهل تدركين معنى الزواج فوق البلاط!

ـ فأجابته بإصرار:

ـ نعم أدركـه.. ولا تنس أننى لست بنت عز وإنما خبـرت

جفاف الحياة والحرمان مثلك طوال حياتى.. سوف ننام على البلاط حتى نشترى فراشا وأدوات للمطبخ وأدوات منزلية وسوف أعمل وأساعدك وسنشترى كل شىء بالتقسيط خلال خمس سنوات بإذن الله.

نظر إليها بعمق يرقب وجهها الجميل الذى تألق جماله بفورة الحماس التى انتابتها وقال لها بعطف وحب يجلان عن الكلام:

ـ هل ترضين لهذا «الجمال» الذى أستكثره فى أحيان كثيرة على نفسى بأن ينام فوق البلاط ويعيش على الساندوتشات وقد كان فى مقدوره أن يتمرغ فوق الحرير؟

شاع الرضا فى وجهها وطربت للثناء لكنها قالت له وعيناها تلمعان بالرغبة فى مداعبته:

ـ اطلب لى فنجاناً من القهوة ولا تذكِّرنى بما أسمعه من أمى.. ومن «الذئاب».. وإلا غيَّرت رأيى فى الزواج منك!

دعا الجارسون وطلب منه فنجانين من القهوة.. والتفت إليها فرآها تنظر فى عطف رقّ له قلبه فتولاه فجأة الإحساس المؤلم بالعجز عن إسعادها وقال لها فيما يشبه الأنين والولولة:

ـ لماذا ربطتِ نفسك بشاب فقير مثلى.. ولماذا لم تقبلى عرض «الرجل» الغنىّ صاحب مكتب الإستيراد.. ولماذا كنتِ

مثلى ضحيةً لمثل هذا الفقر الأزلى؟. إننا فقيران للغاية يا وفاء، وهذا أمر محزن فى حد ذاته لكنه يؤلمنى الآن بأكثر من أى وقت مضى لأنك ستبدئين حياتك الجديدة ونحن لانملك شيئاً.. أى شىء..

استمعت إلى أنينه بقلب لم ينبض بالحب إلا له، وقالت بهدوء أرادت أن تعيد به الثقة إلى نفسه:

ـ نحن نملك كل شىء.. نملك الحب.. والإخلاص والصفاء والشباب والصحة.. والشهادات.. وسنكافح معاً لبناء حياتنا قطعةً قطعةً فلماذا «تُولول» هكذا كالضعفاء؟.

همّ بأن يجادلها فى الأمر مرة أخرى.. لكنها رفعت إصبعها فى وجهه محذِّرة وقالت له: لا تفسد علىَّ استمتاعى بقهوتى.. وأبلغ أبويك أن يستعدا للرحيل بسلام خلال يومين لأننا سنتزوج يوم الخميس القادم بإذن الله.

فلم يملك إلا أن يتنازل عن أية معارضة... وراح يرقبها وهى تحسو القهوة بتلذذ واطمئنان عجيبين، فجاش صدره من جديد بحب طاغ لها.. وتمنى لو كان ربُّه قد وهبه مال قارون لينثره كله فوق رأسها فى هذه اللحظة نفسها.. وهى جالسة فوق هذا المقعد الخشبى القديم.. فى هذا المقهى البلدى المتواضع!

٣

طائـر الحنان!!

هل تُكسب الظروف الحزينة خبرتها المؤلمة حتى للصغار الذين لا يعون جيداً حقائق الحياة؟

هكذا تساءل كمال وهو يرقب طفله الوحيد جالساً أمامه إلى مائدة الإفطار يتناول طعامه فى صمت ويتصرف «برزانة» لا تتناسب مع عمره البرىء. يا إلهى لشدّ ما تغيَّر هذا الطفل الصغير خلال الفترة الأخيرة. لم يعد يتمسك بمطالب خاصة له فى الطعام والشراب كما كان يفعل قبل ذلك، ولم يعد يرفض طبق البيض إذا قدم إليه غير مطهو طهواً كاملاً ويعيده رافضاً أن يذوقه.. فتقوم «الجميلة الحنون» بإعادة طهوه فى المقلاة ثم تزيِّنه له بقطع صغيرة من الطماطم والجزر والبقدونس لتغريه بتناوله.. فيضع الشوكة فيه أولاً بحذر ليختبر صلابته قبل أن يأكله ثم يشير إليها برأسه فى تحفظ كأنما يقول لها إنه «لا بأس به» فتتسع ابتسامتها العريضة، وتعتبر إشارته الملكية المقتضبة علامة رضا تسعد بها وتحثه على تناول طعامه كاملاً مكافأة لها على إجادة طهوها له حتى نال رضاءه السامى!

لم يعد يفعل شيئاً من ذلك ولم يعد يتمرد على احتساء كوب اللبن فى الصباح ويتفنن فى اختلاق الأسباب الواهية للتخلص منه مهما حاولت هى أن تتفادى حججه ومبرراته، فحتى الفقاقيع التى تطفو فوق سطح الكوب كانت تزيلها بالملعقة قبل أن تقدم له الكوب بعد أن اعترض عليها ذات

مـــرة.. وحتى طبقـه القشدة التى تتجمع على السطح كانت تكشطها تماماً حتى لا تعطينة مبرراً للرفض والإباء.. ومـــع ذلك فـما كـانت أكثـر أسبـابه واعتـراضاته وما كـان أطول صبـرها عليـه ورفـقـهـا بـه.. فلم تكن تضـــيق به أبـداً ولا تصارحـه بأنه إنما يتعلل بالأسبـاب الواهية تهرباً من احتساء اللبن، وإنمـا كـانت تسـارع بابتـسـامـتـهـا الدائمـة لتـزيل مـا اعترض عليه من أسباب وتقدم له الكوب من جديد، فيبدى سبـبـاً مـخـتلفـاً آخـر وتسـارع مـرة أخـرى بإزالتـه ليفـرغ فى النهاية من تناول اللبن وهى تحثه بنظراتها على تجرعه حتى الثـمـــالـه.. وتضحك بسـعـادة حين ينتهى منه وتنهـال عليه بالثناء والإشـادة كأنما قد حقق بطولة عالمية باحتساء كوب اللبن.

أما «معركة» ارتداء ملابسه فقد كانت تبدأ منذ الصباح المبكر وتشـهـد نفس الاعـتـراضـات من جـانبــه ومـحـاولات الإرضاء من جانبها، وفى كل يوم له مبـرر جـديد للاعـتـراض عـلـــى شـــىء.. فـالزى المدرسى ليس مكوياً كـمـــا يجب ولا يستطيع ارتداءه هكذا، فلا تجيبه إلا بكلمتها الحانيـة «حالاً يا حبيبى» ثم تسارع بإعادة كى الزى الذى سبق لها أن كوته فى المساء، والحذاء ليس لامعـاً تماماً لكن لا مشكلة فى ذلك فلسـوف تعـيـد تلمـيـعـه على الـفـور حتى يبـرق لونه الـبنى كـــالذهـب.. ناهيك عن متاعب تصفيف شعره واعتراضاته

الوهمية عما يسببه له التصفيف من ألم فى فروة الرأس...إلخ، وهى تهدهده وتداعبه وتستجيب لكل مطالبه وأوامره كأنه ملك متوج يأمر فيطاع فى كل شىء!

فما بالك يا ولدى قد أصبحت تقبل الآن بكل الأشياء بلا ممانعة.. ولا اعتراض؟ وأين دلالك السابق وتبطرك على كثير من الأشياء؟ وكيف أصبحت تصحو من نومك على صوت المنبه وحدك وبلا دعوة من أحد فتنهض من فراشك بلا ممانعة ولا محاولة للاستزادة قليلا من ساعات النوم اطمئناناً منك إلى أن الجالسة على طرف فراشك سوف تدعك دقائق أخرى لتنعم فيها بنومك اللذيذ ثم تعود لإيقاظك برفق من جديد وهى تشاكسك وتلاعبك لتشجعك على التنبه والاستيقاظ؟ بل وكيف أصبحت تدخل الحمام وتغسل وجهك بلا مساعدة من أحد ثم ترتدى زى المدرسة متجعداً مكسراً بلا اعتراض وتجلس إلى مائدة الإفطار فى انتظار ما أقدمه إليك من طعام مهما كان نوعه ومهما كانت درجة طهوه أو جودته؟

إن شقيقتى الوحيدة تدعو لك الله بالنجاح والفلاح وتهنئنى بأنك أصبحت مريحاً مطيعاً وملبياً لكن ما يطلب منك بلا معارضه، وترجو الله لك أن تستمر هكذا لكى أتخفف من بعض العناء، لكنى أتألم لك وأرثى لحالك يا

ولــدى.. فلقد فقدت شيئا جوهريا لا أستطيع تعويضه لك بفـقـدك لعنادك الطفـولى السـابق ولكثـرة مطالبك واعتراضاتك.. لقد فقدت عزة الإحساس بحقك على أبويك فى أن يلبيا لك كل ما تطلبه.. وعزة الإحساس بأنك ملك متوج وصاحب بيت يأمر فيطاع ولست ضيفاً عليه.. فكيف أعيد إلى روحك الحـزينة هذا الإحساس الثمين؟

لقد قال لى الجميع بعد رحيلها المفاجىء الذى هزمنا معا إننى سأعانى الكثير فى خدمتك وتربيتك لأنك مدلل وعنيد وكثير المطالب، ولأن الجميلة الحنون قد أسرفت فى رعايتها وتدليلها لك فنشأت صعب الإرضاء وقليل الصبر على الأشياء.. ونصحونى جميعاً بأن أرجع للإقامة فى بيت أمى لتشاركنى تحمل عناء رعايتها وتخفف عنى متاعبها، لكنى رفضت أن أهجر العش الصغير الذى شهد سنوات سعادتنا معا نحن الثلاثة.. ورفضت أن أنام على فراش آخر سوى الفراش الذى جمع بينى وبينها سنوات جميلة من سنوات العمر، وفضّلت العودة إلى مسكننا بعد فترة الإقامة الضرورية الأولى لك فى بيت جدتك، ونفضت التراب عن الأثاث الأنيق الذى اختارته هى بذوقها الرفيع، وفتحت الستائر المسدلة ليرجع الضوء إلى البيت الحزين وأعددت لك غرفتك وفراشك.. وقلت لك إن الأيام لن تفرقنا أبداً

بعد أن حرمتنا الأقدار ممن كانت تشع علينا من حنانها ما يغمرنا معاً بإحساس الدعة والأمان، وحاولتُ فى أيامنا الأولى معا أن أقلدها فى رفقها بك ورعايتها لشئونك بل وفى مداعباتها أيضا لك وهى تحاول إغراءك بشرب كوب اللبن وارتداء ملابس المدرسة.. إلخ فكنت أكاد أشعر بك وأنت تقول لنفسك:

هيهات يا أبى أن يستطيع «التمثيل» تقليد الحقيقة.

ومع ذلك فقد حاولتُ وتحملتُ وصبرتُ فى البداية على تلبية مطالبك مهما كانت غريبة أو غير ضرورية.. وأصبحنا نخرج معا فأصطحبك إلى المدرسة وأدعك بها ثم أتوجه إلى عملى.. ومهما كانت شواغلى فلقد كنت أضحى بكل شىء لألحق بموعد خروجك من المدرسة وأرجع بك إلى البيت ونظل معاً حتى صباح اليوم التالى نعد الطعام ونأكله معاً.. ونرتب البيت ونشرب الشاى و«نذاكر» معا ونشاهد التليفزيون أو نخرج إلى «السوبر ماركت» لشراء متطلبات حياتنا أو نخرج معاً إلى زيارة أسرتى أو أسرة أمك ثم ننام فى وقت واحد تقريبا فأجلس إلى جوار فراشك حتى يداعب النوم أجفانك وأنسحب إلى فراشى فأستسلم للنوم بعد لحظات، ويبدأ يوم جديد فى حياتنا المشتركة. وحين تلح علىَّ جدّتك لوالدتك بأن أدعك فى ضيافتها بضعة

أيام.. أشعر بوحشة شديدة فى غيابك ولا أطيق البقاء فى المسكن الخالى فأهرع للإقامة فى بيت أمى، ولا أشعر بالأمان إلا حين أستعيدك ونرجع معا لحياتنا فى مسكن الذكريات.

ويوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر بدأت ألاحظ أنك تتخلَّى تدريجيا عن عنادك السابق.. وطلباتك التى لا تقبل التأجيل، وعن مراوغاتك لى فى تناول اللبن والطعام وارتداء زى المدرسة وعن مطالبك بشراء الجديد من اللعب دائماً أو الذهاب إلى السينما.. أو مدينة الملاهى فى كل الأوقات ومهما كانت الظروف.

بدأتَ تتخلَّى عن كل هذه الأشياء ولا تلح علىّ فى طلب شىء ولا تبكى إذا رفضت لك طلباً أو اعتذرت باستحالته أو نسيت تلبيته.. وبدأت تظهر عليك علامات الفهم المؤلم والاستيعاب المبكر وتقدير الظروف... فمن أين اكتسبت هذه «الحكمة المؤلمة» ياولدى الصغير؟ وأين شقاوة الأطفال فيك.. وعنادهم ودلالهم وتشبثهم بما يريدون؟ وماذا قالت لك جدتك لأمك أو جدتك لأبيك، خلال زياراتك لهما؟ هل طلبتا منك أن تكون مطيعاً.. مهذباً.. مريحاً قليل المطالب مع أبيك حتى لا تضاعف من أحزانه ومتاعبه؟

ومن قال لك ولهما يا ولدى إننى أريدك طفلاً كسير الخاطر يقبل كل ما يُقدّم له.. ولا يعترض على شىء ولا

يرهق أباه بمطالبه ورغباته؟

لا تستجب لنصائحهما يا ولدى مهما كانت دوافعهما المخلصة، وعُد إلى دلالك وتمردك وعنادك وصخبك وضجيجك فلست أريدك طفلاً صامتاً كسير الخاطر، فالأطفال لا يصمتون إلا حين تُثقل الأحزان قلوبهم البريئة، ولقد خسرنا معاً تلك الجميلة الحنون التى كانت ترعانا معاً فى معركة قصيرة مع مرض غادر قضى عليها فى أيام ونحن نترقب معاً رجوعها إلينا باسمه ضاحكة كعادتها فإذا بنا نفجع معاً بأن طائر الحنان الذى كان يظلل حياتنا بجناحيه قد طار إلى السماء البعيدة ولن يرجع لعشه مرة أخرى. فلا تزد من أحزانى بانكسارك الغامض هذا ولمّا يمض سوى عام وبضعة شهور على غيابها، كأنما قد أدركتَ بفهم، لا ينبغى أن يتاح لك فى سنك هذه ، أن الظروف السعيدة قد ولّت إلى الأبد.. وأن «الظروف» لم تعد تسمح لك بما كانت تسمح به فى ماضى الأيام. لقد تغيرت الظروف حقاً ولكن ليس إلى الحد الذى يحرمك من حقوقك كطفل ينبغى له أن يلهو ويصخَب ويعاند فى بعض الأحيان.

.. ثم من الذى ينبغى له أن «يعطف» على الآخر أهو أنا أم أنت؟

إذن فكيف أشعر وكأنك تحس تجاهى بالعطف.. وتشفق علىّ من وحدتى وتفرغى لرعايتك «فتنصحنى» بأن أرجع

للخروج والذهاب إلى المقهى فى المساء لأتسلى بلعب الطاولة مع أصدقائى كما كنت أفعل فى الأيام الجميلة وتشجعنى على ذلك بأن تؤكد لى أنك تستطيع «رعاية نفسك» ومشاهدة التليفزيون فى أمان إلى أن أعود؟

بل وكيف ياولدى هَداك عقلك البرىء إلى أن «تعرضنى» على مدرِّسة اللغة العربية بفصلك وتنسب إلىّ مميزات وصفات لا أدعيها لنفسى؟ لقد طفر الدمع من عينى تأثراً لحالك وحباً لك حين استدعتنى ناظرة مدرستك وأسرَّت إلىّ منذ أيام فى عطف بأنك قد سألت مدرّستك الشابة الرقيقة.. هل هى متزوجة أم لا وحين أجابتك رغم دهشتها بالنفى فوجئتْ بك تعرض عليها أن تتزوج أباك لأنه كما قلت لها طيب ووسيم ومؤدب ولا يغضب من أحد ولايضرب أحداً ويغسل ملابسه بنفسه ويطهو الطعام ويكنس الشقة ويبكى أحيانا فى صمت وهو يشرب القهوة فى الشرفة وينام فى فراشه وحيداً كل ليلة ويحتاج لمن تخفف عنه هذه الأعباء.

لقد استدعتنى ناظرة مدرستك لتلفت نظرى إلى استشعارك للوحدة والخوف والقلق على أبيك ولتطلب منى أن أغرس إحساس الأمان والاطمئنان فى نفسك، ووعدتها بمضاعفة جهدى لذلك وشكرتها على اهتمامها بأمرك، وحاولت بعد ذلك أن أشيع جو البهجة والمرح فى حياتك

ودعوتُك لمشاهدة السيرك أول أمس وتعمدت أن أبدو أمامك ضاحكاً ومبتهجاً باستمرار.. فهل نجحت فى إيهامك بذلك ياولدى؟ وهل نجحت فى بث الطمأنينة والأمان فى نفسك؟

إذن.. فلماذا تبدو صامتاً وحزيناً هذا الصباح؟ ولماذا تناولت طعامك دون شكوى من أى شىء ودون ممانعة أو تعلل بالأعذار؟

ألا ترانى قادراً على هدهدتك.. وملاعبتك.. وتحمل مراوغاتك حتى تطعم طعامك وتشرب لبنك كما كانت تفعل الجميلة الحنون معك قبل أن ترحل عنا إلى الأبد؟

إننى أحاول أن أكرر معك ما كنت تفعله.. لكن عينيك الحزينتين تقولان لى فى صمت: لا تتعب نفسك يا أبى.. فأنت لست هى.. وأنا لم أعد ذلك الطفل المدلل العنيد. فإلى متى يستمر هذا الانكسار المهزوم فى أعماقك ياولدى؟

همَّ بأن يسأله هذا السؤال ففوجىء به ينهض من المائدة حاملاً حقيبته المدرسية وهو يقول له: هيَّا بنا يا أبى.. وإلا تأخرت عن موعد المدرسة! فانتفض الأب واقفا بارتباك ثم حمل حقيبة أوراقه السوداء.. وأمسك بيد طفله الصغير واتجها معا إلى باب الشقة.. وكلاهما يفكر فى شأن صاحبه ويشعر تجاهه بشىء من العطف والرثاء!

٤

الصوت الكئيب!!

من مجلسه المعتاد كل مساء راح يتابع الأحداث فى استغراق شديد متلهفاً إلى ما يُبدد وحشته ووحدته الداخليـة. عن قرب، يرقب المشاعر وهى تنمو وتتعمق، وبإشفاق يتوجس لكل ما يهدد صفو القلوب البريئة ويحزن للغدر والخيانة والخصام وسوء الفهم.. ويفرح لانجلاء الحقيقة وانتصار الحب على الشر والخديعة، ويسعد بلحظة التنوير التى يكتشف فيها المحبّان أن كلا منهما، ورغم ما جرى، لا يحب سوى الآخر ولا يسعد إلا معه. أما حين يلتحقان بعد الفراق فينظر كل منهما للآخر فى ضعف وأمل معترفاً بالهزيمة راغباً فى أن يرتمى على صدره لولا بقية شك فى ألا يكون ذلك هو التصرف المناسب.. فيجد لدى الآخر نفس الرغبة مكبلة بنفس التردد.. ويتشجع كل منهما بما يحسه ويقتربان ثم يتعانقان فيتشبث كل منهما بالآخر كأنما يطمئن نفسه إلى أنه حقاً بين يديه ويقول له: كنت ضائعاً بدونك فلا تدعنى للضياع مرة أخرى.

أما حين يحدث ذلك وتختلط دموع الحب بدموع الفرحة بالنجاة، من الهاوية السحيقة فلقد كانت دموعه هو الآخر تسيل معهما بلا إرادة.. فيتمتم فى مجلسه بالدعاء الخافت للمحبين الا يفرق الله جمعهما مرة أخرى وبأن تطيب لهما الحياة حيث يكونان .. ثم ينهض من مجلسه متعزياً بما شاهد عما يفتقد وآملاً فى رحمة الله ألا تنساه إلى النهاية.

أما هذا المساء فلقد تسارعت الأحداث أمامه على غير انتظار فلم يكد يسعد بمتابعه لسمات الحب الرقيقة بين المحبين اللذيّن جمعت بينهما الأقدار بعد تطورات عديدة ويرقب باستمتاع غريب مداعباتهما ومشاغباتهما حتى انفجرت الأزمة على غير انتظار. فلقد تلقى الزوج مكالمة متأخرة من رئيسه فى العمل ينبئه فيها بضرورة سفره فى الصباح إلى مهمة تستغرق بضعة أيام خارج المدينة.. واكتئبت الزوجة الشابة التى تنتظر نهاية الأسبوع ليخلو لها زوجها من كل ارتباط؛ إذ كمادتها تنهض صباح يوم الإجازة مبكرة فتدخل إلى الحمام. وتخرج منه متألقة فترتدى البنطلون والبلوزة فسدقية اللون التى يحبها زوجها وتذهب إلى المطبخ فتمد إفطار يوم الإجازة المميز.. وتضعه على مائدة بالشرفة، ثم ترجع إلى زوجها النائم فى فراشه بكوب عصير البرتقال فتوقظه بمداعباتها الجميلة ويفتح الرجل عينيه فيرى الوجه الجميل الذى يعشقه فيجذبها إليه وتسقط عليه محذِّرةً من انسكاب البرتقال عليه كما حدث مراراً من قبل ثم تدفعه إلى الحمام دفعا وهو يرشف عصير البرتقال ويعابثها، ثم يخلوان إلى إفطارهما فى الشرفة ويستعدان لقضاء يوم الإجازة فى المكان الذى يتفقان عليه.. وسواء خرجا إلى النادى أو إلى وسط المدينة أو إلى رحلة قصيرة خارجها أو بقيا فى البيت.. فالأوقات سعيدة والقلب

مُترع بحب الآخر والاحتياج إليه.. والدنيا كلها شخص واحد هو شريك الحب والحياة، فالأطفال لم يجيئوا بعد.. ولا شيء يشغل القلب عن ساكنه سواه.. فما معنى هذا التكليف المفاجىء الذى يفرق بينهما بغير إنذار؟

فطبَّت ساهمة فقال لها زوجها: تعالىّ معى.. سنقيم فى فندق صغير على الشاطىء وستتسلين بالجلوس فى شرفته المطلة على البحر خلال انشغالى بالعمل حتى أرجع إليك.

فأجابته قانطة: لم يبق لى رصيد من الإجازة، فقد استهلكته كله فى سفرياتك السابقة، وأخشى أن أفقد عملى إذا طلبت إجازة استثنائية.

لم يعد هناك مفر من الفراق المؤقت، وسلمت الزوجة الشابة بذلك واغتصبت ابتسامة شاحبة وزوجها ينظر إليها فى رجاء واعتذار.

ثم توالت الأحداث بعد ذلك بسرعة أزعجت من يرقبها من مجلسه فى صمت وإشفاق، فسافر الزوج إلى مهمته بمدينة بعيدة، وانشغل بالعمل صباحاً ومساء، وتطلبت الظروف أن يجتمع بسكرتيرة مدير فرع الشركة بالمدينة ساعات طويلة فى المساء لإعداد التقرير النهائى عن مهمته.. وتعثرت المهمة لأسباب طارئة فمدّ إقامته فى المدينة بضعة أيام أخرى واتصل بزوجته الرقيقة معتذراً

برقة أمام السكرتيرة وتقبّل عتابها لإنهاء المهمة قبل نهاية الأسبوع.. فسألته السكرتيرة مبتسمة:

- إلى هذا الحد تحبها؟

فأجابها باقتضاب:

- وأكثر.

فنظرت إليه نظرة طويلة ثم تمتمت: كذلك كنت أحب زوجى حتى حدث ما حدث!

همّ بأن يسألها عما حدث.. فكاد من يرقب الأحداث فى صمت وإشفاق أن ينهض من مقعده راجياً الزوج ألا يسألها عن حياتها الشخصية لكيلا يفتح باباً غير مأمون العواقب للاقتراب منها.. فالمرأة مطلقة ووحيدة وشهية ومتعطشة للحب وهى كما بدَت له معجبة بهذا الزوج الوسيم، وقد أثار حبه لزوجته الذى لمسته خلال الأيام الماضية غيرتها أو على الأقل فضولها.. فلماذا تزيد النار اشتعالا يا صديقى بالحديث الشخصى فى غير شئون العمل؟

لم يستمع الزوج للتحذير المخلص للأسف.. وانساق وراء تداعى الحديث فسألها عما حدث وروت له قصتها مع زوجها.. وكيف أحبته حباً مخلصاً فإذا به يغدر بقلبها ويرتبط بفتاة صغيرة ويطلقها ليتزوجها، ودمعت عيناها

وهى تحكى له عن مأساتها فقدم لها منديلاً ورقياً ثم اقترح تأجيل العمل لوقت آخر لكنها تمالكت نفسها سريعاً وأصرت على مواصلته. وتأخر الوقت بهما وأراد حارس الأمن إغلاق المكاتب فإذا بها تعرض عليه أن يستكملا التقرير معاً فى مسكنها القريب!

فهمّ مراقب الأحداث بالوقوف مرة أخرى معترضاً ومحذراً، لكن الزوج الشاب قَبِلَ دعوة السكرتيرة المطلقة للأسف وذهب معها إلى بيتها وتطورت الأحداث بينهما إلى نتيجتها المتوقعة، فأمضى الرجل ليلته فى مسكنها، وفى الصباح تنبه إلى المنزلق الخطير الذى هوى إليه.. فارتدى ملابسه حزيناً وغادر المسكن عائداً إلى فندقه وهو يشعر بالإثم والتخاذل.

وتعمد بعد ذلك ألا ينفرد بالسكرتيرة أبداً رغم محاولاتها المتكررة معه وراح يطلب زوجته ويبثها حبه وأشواقه كأنما يطمئن نفسه إلى أنها لم تعرف شيئاً مما حدث وتعجل إنهاء مهمته بكل وسيلة ممكنة حتى أنجزها وحزم حقيبتيه واستعد لمغادرة الفندق فإذا بالسكرتيرة تنتظره فى البهو وتسأله باضطراب: لماذا تتهرب منى؟

اعتصم بالصمت متجنبا أى مزيد من التورط معها فقالت له:

لقد حدث ما حدث بيننا رغما عنا ولست أريد هدم

أسرتك أو تدمير حياتك لكنك الرجل الوحيد الذى دخل حياتى منذ طلاقى من زوجى، وليس هذا بالأمر الهيّن فلا تحرمنى فقط من الحديث معك تليفونياً كلما سمحت الظروف.

فلم يجد الرجل مفراً من وعدها بذلك وركب القطار عائداً إلى مدينته وزوجته، فوجدها فى انتظاره فى محطة القطار جميلة كعهده بها ومحبة ومخلصة فاندفعت إليه والدموع تطفر من عينيها وتلقاها بين أحضانه ومشاعره تتضارب بين الفرحة بلقائها والإحساس بالإثم تجاهها والخوف مما تحمله له الأيام معها.

وبصعوبة شديدة تغلب الزوج الشاب على مخاوفه واستعاد إحساسه بالأمان مع زوجته.. ورجعت طيور الحب تغرد فى عشهما فى صفاء فلم يمض شهر حتى فوجىء بالسكرتيرة المطلقة أمامه فى مكتبه! لقد جاءت إلى المدينة فى مهمة عمل وطلبت من رئيسه أن يكلفه بمساعدتها فيها لسابقة تعاونهما معاً فى العمل وحاول الزوج الاعتذار بشتى الحيل فلم تُتِح له فرصة للفرار. واضطر بالفعل لمشاركتها إعداد التقرير المطلوب، فلم تدع وسيلة لإغرائه واجتذابه إليها دون استغلال. ودعته لزيارتها فى الفندق الذى تقيم فيه فاعتذر بجفاء وتكررت المحاولات وتكرر الصد فتحول التودد من جانبها إلى غضب وجفاء وقالت له بتهديد:

لست امرأة لليلة واحدة.. ولا أقبل أن تعبث بى.. فإما أن

تثبت «احترامك» لى.. وإما أن تدفع ثمن ذلك غالياً.

فلم يحر جواباً وانصرف مهموماً.

وتصاعدت الأحداث بعد ذلك بسرعة الصاروخ، فراحت تطارده فى كل مكان وتتصل به تليفونياً فى مسكنه فى أوقات متأخرة من الليل لتثير شكوك زوجته فيه، ونجحت فى ذلك فعلاً فعلَت سماء الحب بعض الغيوم، وتحمل الزوج الشاب كل المتاعب أملاً فى انتهاء مهمة السكرتيرة وعودتها إلى مدينتها.. فإذا به يعلم بأنها قد تقدمت بطلب لنقلها إلى المقر الرئيسى للشركة فازداد تشاؤماً وتوجساً من المستقبل. وبعد أيام أخرى فوجىء بزوجته الشابة الجميلة تنظر إليه دامعة ثم تقول له فى أسى:

ـ كيف استطعت أن تلمس امرأة أخرى وأنا أحمل لك كل هذا الحب؟!

فأحنى الرجل رأسه عاجزاً عن كل جواب.. وهمّ بالاقتراب منها معتذراً فتراجعت بعنف وقالت له بغضب هائل: لا تقترب منى!

ثم جمعت ملابسها وغادرت المسكن وفشلت كل الحيل معها لإرجاعها أو إثنائها عن طلب الطلاق.

وواجه الرجل أقداره فى استسلام فاستجاب

لمطلبها وطلقها وحقق لها كل رغباتها آملاً فى أن تنجح الأيام فى التكفير عن خيانته لها ذات يوم وتحول إلى السكرتيرة التى هدمت سعادته بشراسة فهددها بالقتل إن لم تبتعد عنه وتكف عن ملاحقته حتى استشعرت جدية التهديد وعمق الكراهية فيئست منه تماماً وسحبت طلب النقل ورجعت إلى مدينتها متشفية فى الرجل الذى رفض قلبها.

وعاش هو وحيداً يذهب إلى عمله ويرجع منه بلا روح ولا حياة، وكلما سنحت له فرصة لرؤية زوجته السابقة جدد اعتذاره لها ورجاها العودة إليه، فلا يجد لديها سوى الرفض والجفاء، وسلم أخيرا باليأس منها، وقرر أن يرحل عن المدينة كلها ويبدأ حياة أخرى فطلب الانتقال إلى أحد فروع المؤسسة البعيدة وأجيب إلى طلبه على الفور، واستعد للرحيل فجمع ملابسه وأغلق مسكنه الذى شهد أجمل أيام العمر.. ثم أراد أن يرمى سهمه الأخير فانتظر أمام باب عملها ليودعها ويرجوها أن تحاول النسيان مرة أخرى، فإذا بها تخرج فى صحبة شاب من زملائها تتحدث إليه وتضحك معه.. وبقوة الألم وحدها اعترض طريقهما «راجيا» منها أن ينتحى بها جانبا ليحدثها للمرة الأخيرة لمدة دقيقة واحدة. ووقف الشاب رافضاً الابتعاد حتى أشارت له فابتعد ووقف ينتظر انتهاء الحديث. وسألها زوجها السابق فى حسرة: من

هذا الشاب؟ وأجابته باقتضاب: زميل تقدم لخطبتى وأفكر جدياً فى قبول عرضه!

واحس بطعنة سكين غائرة فى صدره وابتلع ريقه بصعوبة وسألها:

ـ هل تحبينه؟

فأجابته فى مرارة:

ـ وماذا أفادنى الحب قبل ذلك؟

فعجز عن أى دفاع وأنهى إليها بإيجاز خبر رحيله عن المدينة.. ثم مدّ لها يده بورقة صغيرة تحمل رقم تليفونه فى مقره الجديد طالباً منها أن تتصل به فى أى وقت إذا احتاجت لمن يقف إلى جوارها بإخلاص فى أية محنة تعترض حياتها، أو إذا شعرت ذات يوم ولو بعد سنوات بأنها قد صفحت عنه وترغب فى استئناف الحياة معه لأنه سوف ينتظرها ولن يرتبط بامرأة أخرى مهما طال الزمن، ونظرت الزوجة المطلقة إلى يده الممدودة إليها بالورقة فى جمود ولم تمدّ يدها لالتقاطها.

فخفق قلب من يراقب الأحداث على البعد من التأثير وتمتم مخاطباً الزوجة الشابة: بربّك خُذيها منه.. خذيها يا سيدتى فهو يحبك ونادمٌ أشد الندم على خطيئته فى حقك فلا تغلقى فى وجهه باب الرحمة للنهاية.. ولا تعاندى قلبك

الذى يحبه فسوف تسيئين إلى نفسك كثيراً بالارتباط بالشاب الآخر فاسمعى نصيحتى وابتلعى كبرياءك ولا تحكمى على نفسك بجحيم الحياة مع من لا تحبين. فحتى معاناتنا مع من نحب أرحم كثيراً من عذاب الجحيم مع من لا تحبين ولا تطيقين لمسه أو اقترابه منك.

ولم تسمع الزوجة الشابة تمتمته المشفقة بالطبع، لكنها نظرت إلى يد زوجها السابق مرة أخرى.. ورفعت عينيها إلى وجهه فرات نظرة الانكسار والرجاء والاستجداء فى عينيه فمدت يدها بتردد إلى الورقة ففوجئت بزوجها يمسك بيدها ويرفعها إلى فمه ويقبلها فى اعتذار يغنى عن كل كلام وأحست بدمعة ساخنة على ظهر يدها تلسعها وأحست عمق الألم الذى يعانيه.. فلم تقو على مواصلة الاحتمال.. وأطلقت العنان لدموعها الحبيسة.. ولم تبد أى اعتراض على اجتذابه لها ببطء لتغوص فى أحضانه وهو يبكى معتذراً ومؤكداً لها أنه لم يحب سواها. ثم سارت إلى جواره ملتصقة بـــه.. والشاب الآخر يرى ما يجرى ويفهم مغزاه فيمضى مبتعداً وموقناً أن كل ما ذكرته له عن شكها فى قدرتها على بدء حياة أخرى مع غير زوجها كان صحيحاً.

والجالس يرقب الأحداث فى صمت يترقرق الدمع فى عينيه فى ابتهاج غريب ويجيش صدره بالانفعال لاجتماع

الحبيبين مرة أخرى بعد سحابة الفراق.. وصوت صامت فى أعماقه يهتف بإخلاص: فليسعد الله المحبين.. فليسعد الله المحبين.!

فإذا بصوت كئيب صادر من اتجاه باب الغرفة التى يجلس فيها يخرجه من استغراقه الممتع فى أحوال الحب وتطوراته ويقول له بلهجة مستنكرة: ألم يحن الوقت بعد لتنام وتغلق هذا «الفيديو» اللعين الذى تتجمد أمامه كل ليلة حتى الفجر وتنفق الكثير على أفلامه ثم تشكو بعد ذلك من فاتورة الكهرباء ومطالب البيت.. وكثرة النفقات؟!

فلعن فى سره كل ما يمثله هذا الصوت الكئيب فى حياته من معانٍ ورموز، وأشار لصاحبته بأنه سيفعل ما تريد طالباً منها برجاء أن تعود لمواصلة نومها السعيد وجمد فى مكانه حتى تحركت راجعةً إلى غرفة نومها وهى تتمتم بما لم يسمعه فانتظر قليلا حتى تبدَّدت سحابة الهواء الثقيل الذى جلبته معها إلى الغرفة فكاد صدره يختنق به، ثم ضغط على زرار الجهاز ليستعيد مشهد عودة الصفاء إلى القلوب المحبة آملاً أن يرجعه إلى عالم الحب البديع الذى لم يعد يعرفه أو يستشعره أو يتعزّى به عما يضيق به صدره، إلا فى هذه الجلسة كل مساء أمام هذا الجهاز العجيب!

٥

لك ولمن تحبّين!!

صغيرة.. وجميلة.. ووديعة.. فماذا ينقص القلب البرىء لكى يهنأ بالحياة؟

ولماذا تبدو مثقلة دائماً بالهموم كأنما قد خَبرت الدنيا وعانت آلامها؟ أم هل صُدمت فى حبها الأول وعرفت مرارة الخديعة فى الشباب الباكر؟ وهل ذاقت قسوة الرفض ممن تحب وجربت عذاب الشك فى النفس؟ هل قست عليها ظروف الحياة فأورثتها ميلاً غريزياً للحزن والشجن؟

لا يعرف حتى الآن.. فهى وافدة جديدة على الإدارة التى يعمل بها، ولم تمض أيام على استلامها العمل منذ دخل المدير إلى الصالة الكبيرة التى تتناثر فيها مكاتب الموظفين ومعه هذه الفتاة ثم اتجه إليه باعتباره أقدم زملائه وأكبرهم سناً، وقدمها إليه وطلب منه مساعدتها ورعاية خطواتها الأولى فى العمل، قائلا له إنها ابنة صديق قديم راحل ثم انصرف. فصافحها يومها بترحيب فحيته بتهيب واحترام ودعاها للجلوس أمام مكتبه فجلست منكمشة كالقطة الخائفة. سألها عن اسمها وسنها ومؤهلها الدراسى وأجابته بصوت خافت، ثم تحيّر كيف يبدأ تدريبها على العمل، فاستأذنها فى الغياب لحظات وتوجه إلى مكتب المدير وسأله عما ينصح بإعطائه من مهام فقال له المدير: لا يهمنى ما ستقوم به من عمل.. فلقد عينتها لأساعدها وأمها على الحياة وفاء لأبيها زميلى القديم فى بداية حياتى

العملية.. وكل ما يهمنى هو أن تقربها منك وتحميها من الذئاب وتزيل مخاوفها من الحياة.

فعاد من عند مديره وهو أكثر حيرة.

قرر أن يكتفى فى اليوم الأول بتعريفها بطبيعة العمل فى الإدارة فتحدث إليها عنه.. وعرفها بالزملاء.. واصطحبها إلى الأرشيف.. وعرفها بنظام العمل والعاملين فيه. ثم رجع إلى مكتبه فجلست أمام مكتبه حانية الرأس حتى قال لها برفق:

- يكفى هذا بالنسبة لك اليوم وتستطيعين الانصراف والعودة فى الصباح، فشكرته هامسة وانصرفت وتابعها بنظراته وهى تتجه إلى باب الخروج وازداد إحساساً بالإشفاق عليها.

●●

أزفت ساعة الخروج من العمل.. فتسابق الزملاء إلى باب الهيئة.. وخرج هو متثاقلا.. وعند باب المصعد التقى بزميل قديم من إدارة أخرى فتصافحا وركبا المصعد معا وترافقا فى الطريق بضعة خطوات إلى أن جاءت نقطة الافتراق فسأله الزميل: ستذهب إلى نفس المكان كالعادة؟ فلم يجد دافعاً للكلام وأجابه بابتسامة حزينة فودعه الزميل واتجه إلى محطة المترو.. وانحرف هو إلى الشارع الجانبى قاصداً وجهته اليومية.

إلى نفس المكان كالعادة ؟.. نعم إلى نفس المكان وأين يذهب من كان وحيداً فى الخامسة والخمسين من العمر مثلى لا زوجة تنتظره فى البيت مثلك.. ولا أبناء كالذين تشكّون من متاعبهم ونفقاتهم كل يوم.. ولو جربتم الوحدة لعرفتم أى نعمة تتضجَّرون منها.. وقد مضت الأيام ولم يعد فى العمر ولا فى القلب متسع لحب أو زواج.. حتى الإخوة باعدت بينى وبينهم الحياة فهاجر شقيقى الأوسط إلى أمريكا.. ورحلت أختى الوحيدة مع زوجها إلى دولة عربية.. وتزوجت الصغرى فى أقصى البلاد حتى لتمضى الشهور بل والأعوام أحياناً قبل أن يزورنى أحدهم.. نعم إلى أين يذهب من تبدد العمر من بين يديه هَدراً فأضاع حب الجامعة بتردده أمام مسئولية الزواج وأضاع حب الرجولة بالشك فى إخلاص من يحبها، وأضاع الكرامة بتدلهه فى حب من لم تحبه والتوسل إليها لأن تتزوجه فلم تقبل وتزوجت غيره.

بلغ فى مسيره شارع عرابى.. فانتقل إل[illegible] الأيمن وواصل السير حتى اقترب من مقصده وا[illegible] داخلاً إلى البار الصغير.. واتجه إلى مائدته اليومية بجوار الحائط.. لم يكن فى البار أحد سوى النادل العجوز فحيَّاه بيده ورد النادل التحية مبتسماً وبعد قليل جاءه بطبق الفول النابت وزجاجة بيرة.. وهو يسأله عن الأحوال:

- ككل يوم ياعم فرغلى.. لا جديد ولا غريب تحت الشمس.

عاد النادل إلى موقعه فالتقط بعض حبات الفول وأكلها.. أول طعام يدخل إلى معدته هذا اليوم وكل يوم.. ففى مسكنه فى الصباح لا يشرب سوى الشاى.. وفى العمل لا يشرب إلا القهوة ويدخن طوال الوقت، فلا عجب إنْ بدا ممصوصاً رغم ما يتجرعه من زجاجات الجعة كل يوم.

سيمضى ما بقى من نهاره فى هذا المكان يرقب الطريق من فرجة بين الباب والبارفان الذى يستر صالة البار عن أعين المارّه.. وسيشرب ثلاث زجاجات أو أربع من البيرة.. وسيأكل إذا اشتد به الجوع وجبة خفيفة من لحم الرأس أو من الجبن والسميد يطوف بها بائع جوال بين البارات وسيتبادل التحية مع بعض الرواد اليوميين مثله وربما تبادل معهم التعليق على الأحوال الجارية.. أما الغرباء فلا يجب الحديث إليهم أو التعرف بهم، وسيعود إلى مسكنه الخالى فى التاسعة أو العاشرة مثقل الرأس فيقرأ فى فراشه قليلاً أو يشاهد التليفزيون بعض الوقت ثم يستسلم لنوم ثقيل.

أيامه نسخ متكررة من أصل واحد لا يتغير.. فأين العزاء لمن كان داؤه الوحدة وخُواء القلب.

●●

بعد أيام التعارف الأولى جىء بمكتب صغير للموظفة الجديدة ووضع بالقرب من مكتَبه وكلّفها هو بمساعدته فى

بعض الأعمال التى يقوم بها فكأنما قد أصبحت مساعدة أو سكرتيرة شخصية له وأيّد مدير الإدارة منصور بك هذا الوضع لثقته فى أخلاقه وحسن معاملته للبشر.

الوافدة الجديدة اسمها سماح وفى العشرين من عمرها حصلت على شهادة فوق المتوسطة وخرجت للعمل لتساعد أسرتها على استكمال المشوار.. تبدو دائما خائفة ومهمومة فإذا اقترب منها زميل وتحدث معها فى شىء خارج شئون العمل. اتجهت بنظراتها تلقائياً إلى الأستاذ سليمان «راعيها» الجالس فى هدوء إلى مكتبه كأنما تستشيره: هل تجيب عن سؤال الزميل أم تتجاهله فيطمئنها بنظرته وهزّة رأسه إلى أنه لا ضير فى أن يتسلى الزملاء من حين لآخر بالحديث عن شئون الحياة!

فإذا لاحت من زميل بادرة خروج على المألوف معها تجلّى الذعر فى ملامح وجهها الجميل وعجزت عن النطق.. فيُنجدها راعيها بحزم يستدعيه عند الحاجة.. ويزأر:

- أستاذ فلان.. عُد إلى مكتبك.. ولا تعطل الآنسة عن عملها.

فيستجيب الزميل المشاكس بلا اعتراض.. وتتنفس سماح الصعداء وترمقه بامتنان.

الجميع فى هذه الإدارة يحبونه، فإن لم يحبوه فهم على

الأقل لا يكرهونه. وحتى إدمانه للجعة الذى يتجلى فى احتقان وجهه يثير لديهم الإشفاق عليه أكثر مما يثير افتقادهم له.. وحتى الأستاذ جمال الذى لم ينْج أحد فى الهيئة كلها من لسانه أو أحقاده.. يكفّ لسانه عنه ويقول حين يجىء ذكره إنه أحب وأطيب قلب فى هذه الإدارة «اللعينة».. من بعده هو بالطبع! فشاء له القدر أن يكون «الناجى» الوحيد من لسان هذا الموظف الحقود.. ولا عجب فى ذلك فهو ملجؤه الوحيد الذى يقرضه فى الملمات ما يحتاج إليه من نقود حين يرفض الجميع إقراضه ويطيل الصبر عليه حتى يسدد دينه.

وكذلك يفعل مع معظم الزملاء الآخرين الذين يتشكّون من ارتفاع الأسعار وطلبات الأبناء فلا يرد طلباً لأحد.. ومرتبه الكبير مع قلة احتياجاته نسبياً عن أصحاب الأسر ومع ما يتلقاه من هبات غير منتظمة من شقيقه المقيم فى أمريكا ييسر له حياته بما يسمح من حين لآخر بأن يستجيب لطلبات قروضهم الصغيرة.. حتى مدير الإدارة نفسه لجأ إليه أكثر من مرة وأقرضه فى مناسبة زواج الابنة الكبرى وحين احتاجت زوجته إلى جراحة ضرورية، ويفعل ذلك دائما فى صمت.

فلم يخف على الوافدة الجديدة ما يتمتع به راعيها من قبول لدى الزملاء.. مازدادت له احتراما وتقديراً.

ويوماً لاحظ عليها قلقها واكتئابها.. فألحَّ عليها بالسؤال عما يشغلها.. وحكت له أن شقيقها الأوسط لم يدفع رسوم معهده العالى حتى الآن.. والأسرة فى ضيق من أمرها.. فسألها فى هدوء: وكم تبلغ هذه الرسوم؟

وأجابته بسلامة نية: حوالى ٣٠٠ جنيه.

فقال لها فى صوت خفيض: سيكون لديك المبلغ غداً.. فلا تحملى لذلك همّاً.

وتولّتها دهشة طاغية.. واعتذرت له على الفور عن عدم قبول المبلغ لأنها لا تستطيع رده.. فدعاها للجلوس أمام مكتبه وحدّثها طويلاً عن تقديره لها ورغبته فى مساعدتها على أمرها مؤكداً لها أن ذلك يسعده إلى أقصى حد ويجعل لحياته الخاوية معنى، وهوّن عليها الأمر بأنه سيتقاضى منها دينه على أقساط صغيرة كل شهر ولن يتضرر من ذلك لأنه لا يحتاج إلى هذه النقود الآن.. ثم اختتم حديثه قائلا لها:

- ما قيمة النقود إذن يا ابنتى إذا لم يستطع الإنسان أن يُنجد بها زميلةً طيبةً مثلك فى إحدى أزماتها؟

وحاولت الكلام فأشار إليها بيده طالباً منها الصمت وقال لها بحزم لطيف:

- عودى إلى مكتبك ياآنسة.. ولا تعطلى العمل!

فلم تتمالك نفسها من الابتسام شاكرة وعادت إلى

مكتبها مطمئنة، وفى اليوم التالى دسَّ فى يدها وهى تعرض عليه أوراقها مظروفاً أبيض فتناولته بحياء وهى تشكره بصوت خفيض.

وفى بار الشروق.. استرجع فى جلسته اليومية الصامتة وجهها الجميل وهى تغالب خجلها وترددها حين مدّت يدها لتأخذ منه مظروف النقود فجاش صدره بالارتياح والابتهاج.. وقال لنفسه:

صغيرة وجميلة فلتهنأ لها الحياة مع من يخلص لها الحب!

ولم تتغير معاملته لها بعد ذلك فى شىء.. فازدادت ثقةً فيه وارتياحا واعتمادا على توجيهاته الحكيمة فى شئون العمل والحياة.

ومع مضى الأيام ازدادت سماح اقترابا من رئيسها المباشر الأستاذ سليمان فعرف كل شىء عن حياتها وأسرتها وأمها وأشقائها فكأنما قد عاشر الأسرة سنين طويلة. فعرف أنها كبرى أخواتها التى مات عنها أبوها وهى فى الحادية عشرة فواجهت الحرمان فى سن مبكرة. وعرف أن خالها الوحيد هو الآمر الناهى فى حياة أسرتها مع أنه لا يساعد الأسرة مادياً فى شىء.. وعرف أنها صديقة أمها الأولى التى شاركتها الإحساس بالمسئولية عن الأسرة، منذ

الطفولة. أما الإخوة الآخرون فمازالوا يتعاملون مع الحياة بخفة لا تتناسب مع ظروف الأسرة القاسية ويرهقون الأم بمطالبهم وغضبهم حين تعجز عن تلبيتها، أما القلب فلم يجد فى جفاف الحياة نسمة راحة تشجعه على ممارسة ترف المشاعر، فى حين تعلقت أختها الصغرى وهى فى السابعة عشرة من عمرها بفتى من جيرانها لم ينه بعد دراسته الجامعية ولا يملك شيئاً وفرضته على الأسرة فرضا غير مقدرة لعجزها عن تلبية مطالب الارتباط قبل أن تعمل أختها. فتجمع الإشفاق فى عينيه وهو يسألها:

- خُطبت شقيقتك الصغرى قبلك؟ ياله من تسرع!

فأجابته بأن شقيقتها مدللة.. وسريعة البكاء.. فلم تشأ أن تقسو عليها وتفيقها من أوهامها على واقع الأسرة المرير وإنما تجاوبت معها وأقنعت أمها بإتمام الخطبة على أمل أن تتحسن الأحوال فى المستقبل، وسوف تساعدها بجزء من مرتبها على تدبير مطالب الزواج.

فتساءل صامتاً.. وكيف يفى مرتبها الصغير بكل هذه الأعباء.. وماذا يبقى منه لنفسها؟

ويوماً بعد يوم أصبحت سماح هى اهتمامه الأول فى الحياة وأصبحت صورتها وصوتها يلازمانه فى جلسته اليومية فى بار الشروق وفى مسكنه الخالى فى المساء وأصبحت

أسرتها هى عالمه الجديد الذى يتنقل فى أرجائه فى خياله
فيعرف متى تسعد الأم وتبتهج ومتى تكتئب ويتولاها الضيق
ومتى يجىء الخال المتعجرف لزيارتهم ويأمر وينهى فى حياتهم
دون أن يتكلف لهم شيئاً حتى فى أشد أيام المعاناة فإذا بادرت
أمها بالشكوى من شىء سبقها بالشكوى من قلة رزقه وكثرة
نفقات الأبناء واضطراره للاستدانة ليلبى مطالبها
الضرورية.. ثم يتعجل إنهاء زيارته للأسرة وينصرف مشيعاً
من أمها «بالدعاء» له لأنه الوحيد الذى يهتم بأمر الأسرة
ومن أخوتها الصغار بالسخط على اهتمامه بالظهور بمظهر
رب الأسرة دون أن يتحمل شيئاً من تبعات ذلك، حتى أكلاتهم
المفضلة أصبح يعرفها ويعرف مواعيدها ويتخيَّل إفطار يوم
الجمعة المميز الذى تجتمع حوله الأسرة بكاملها فى ابتهاج
حقيقى حتى فى أحلك الظروف وتطهو فيه الأم طبقها
المفضل من الفول والبيض والبسطرمة.

وبعد عام من تعيين سماح بإدارته أصبح يتحدث معها
عن كل فرد من أفراد أسرتها بما يوحى لشخصيتنا
وتصرفاته.. وأصبحت تستشيره فى كل شئون حياتها
وأسرتها فيشير عليها بما تثبت لها الأيام صحته وحكمته، ثم
دعته سماح للغداء مع أسرتها فى أحد أيام العطلة
الأسبوعية فرحَّب بالدعوة التى ترقبها طويلاً، وحمل علبة
فاخرة من الشيكولاتة وتوجه إلى بيت الأسرة فلاحظ رثاثة

الأثاث واستمتع بروح الأسرة التى يفتقدها فى حياته.. وأحبّ الأم والشقيق الأوسط والشقيقة الصغرى بلا تحفظ وترك لدى الجميع انطباعاً طيباً.

ولم يمض وقت طويل حتى رد الدعوة للأسرة فى مسكنه وجاء بوجبة من الكباب من المطعم القريب فاستمتعت الأسرة وسعد معها بوقت بهيج، ولم تتكرر الدعوة بعد ذلك منها أو منه ورضى بذلك بعد أن حقق رغبته فى أن يرى «الأعزاء» الذين تخيلهم مراراً ورسم لكل منهم صورة قريبة من الواقع من حديث سماح عنه وذات يوم ضبط نفسه وهو يحلق ذقنه فى المرآة يفكر فيها ويسأل نفسه كيف ستبدو فى عينيه هذا الصباح؟

ويوماً غابت عن الحضور إلى العمل.. فلاحظ على نفسه قلقه واكتئابه وثِقَل الوقت عليه حتى استأذن مديره على غير العادة فى مغادرة العمل وتوجه إلى بار الشروق فبدأ جلسة الشراب مبكراً عن موعدها.

وفى اليوم التالى جاءت شاحبة الوجه فبادرها بالسؤال عن سبب غيابها بالأمس وأجابته بأنها قد أصيبت بنوبة برد حادة. ولم يقتنع قلبه بهذا التفسير.. فانتهز فرصة عرضها بعض الأوراق عليه وقال لها: لا تبدو عليك آثار نزلة البرد.. فصارحينى بالسبب الحقيقى لغيابك أمس وتأكدى من

استعدادى لمساعدتك فى أى شىء مهما كان شأنه.

فكادت دموعها تغلبها.. وروت له أن شقيقتها الصغرى أثارت زوبعة فى البيت بسبب حفل الخطبة الذى سيقام بعد أسبوع وإصرارها على أن يقام فى ناد نهرى قريب من بيتهم رغم علمها بظروف الأسرة وعجزها عن تحمل تكاليفه.

فقاطعها قائلاً بهدوء: ستكون لديك تكاليف الحفل صباح غد وسيزيد القسط الشهرى الذى تدفعينه لى مبلغاً صغيراً. وهمت بالاعتراض فلم يدع لها مجالاً لأى اعتراض واستخدم معها حزمه الرحيم آمراً إياها بالعودة إلى مكتبها.

وفى اليوم التالى سلمها مظروفاً آخر وسد عليها كل أبواب الاعتذار مؤكداً لها من جديد أن سعادته فى أن يفعل ذلك.

وفى جلسته بالبار ذلك اليوم استرجع حيرتها وحرجها ومحاولاتها لرفض المظروف.. ثم استسلامها فى النهاية لقبوله وعلامات الارتياح التى تسللت رغما عنها إلى وجهها فقال لنفسه: لكِ... ولمن تحبين.. أريد أن أقدم كل شىء.. كل شىء.. بلا استثناء.. فلا تحرمينى من هذه السعادة.

وعاد إلى بيته سعيداً راضياً عن نفسه فى المساء.. وبعدها بأيام استدعاه مديره وهو صديق قديم جمعت بينهما رحلة الحياة سنوات عديدة وسأله عن شئون العمل

بعض الوقت ثم نحَّى أوراقه جانباً وقال له: سماح شديدة العرفان لك لما تفعله معها ومع أسرتها.. لكن ألا تبالغ قليلاً فى الاهتمام بأمرها؟

وأجابه محرجا:

ألم تطلب منى رعايتها وحمايتها؟

سكت المدير لحظات ثم قال له:

نعم طلبت منك ذلك ولست أخشى عليها من شىء معك.. لكنى أخشى عليك أنت نفسك.. فنحن الآن فى سن لا تحتمل عذاب القلوب.. فهل تحب أن أنقلها إلى إدارة أخرى بعيداً عنك قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه؟!

فاحمر وجهه خجلاً وانفعالاً.. وأطرق برأسه طويلاً ثم رفع وجهه أخيراً وقال له:

ـ لا تخشَ شيئاً.. فلست بالإنسان الذى يعمى عن واقع عمره وظروفه. فإذا كنت «أستريح» لهذه الفتاة الطيبة.. لن يتجاوز التعبير عن هذا الارتياح حدوده أبداً ومهما طال العمر. ولن يكون له أى أثر تخشاه.

وشاركه صديقه الصمت لحظات ثم سأله فجأة:

ـ لماذا لا تتزوج من أرملة أو مطلقة مناسبة لك فى السن لتشغل بها فراغ حياتك؟

ونهض الصديق القديم قائلا: عالمى صغير ومحدود ولا يتجاوز هذه الإدارة وبار الشروق ومسكنى وليست لى علاقات اجتماعية مع أحد.. فمن أين أجد هذه الشريكة؟ وهبنى وجدتها فكيف أتواءم معها بعد هذا العمر الطويل من الوحدة.. فلقد فاتنى القطار يا صديقى ولم أعد حتى راغباً فى اللحاق به.

وغادر مكتب المدير مشيعاً بنظرات الإشفاق. وفى مكتبه رمق سماح المنحنية على مكتبها بحنان غريب وقال لنفسه: حتى الامتنان ياصغيرتى يجب أن تكتميه عن الآخرين حتى لا يحرمنى أحد منك!

ثم لاحظ بعد قليل تكرار ظهور موظف شاب وسيم من إدارة أخرى فى إدارته وتعمده الحديث معه مسدداً سهام نظراته إلى سماح.. فعامله بجفاء مقصود لكى لا يشجعه على العودة من جديد.. لكنه واصل الإلحاح والظهور بلا نهاية.. وهمّ ذات مرة أن ينهره ويثير أزمة معه فلاحظ فجأة ظلّ ابتسامة على وجه سماح تتجاوب بها مع نظراته ومحاولاته للكلام معها.. فتراجع عن نيته عاجزاً وسلّم بأن السهم قد نفذ وفات أوان الاعتراض!

وبعد أيام رآها تتحدث مع هذا الموظف الشاب بترحيب ملفت للنظر وتضحك بسعادة على حديثه فغالب مشاعره المتضاربه طويلاً قبل أن يستسلم لإحساس لم يألفه من

قبل.. إحساس يجمع بين شىء من الغيرة من هذا الشاب الوسيم وشىء من الإعجاب به فى نفس الوقت.

وبعد جلسات يومية متكررة فى بار الشروق ظل خلالها يقلّب الأمر على كل وجوهه وجد نفسه فى النهاية مستعداً لأن يعين سماح على الارتباط بهذا الشاب بشرط واحد هو ألا يحرمه الغازى الجديد من «حقه» فى رعايتها والاهتمام بأمرها قبل الزواج بعد تفرق الإخوة فى البلاد سواها..

فى صباح اليوم التالى بادرها بالحديث قائلاً:

ـ انتظرت طويلاً أن تحدثينى عن «أمر ما» فمتى تبدئين الحديث عنه؟

فتضرَّج وجهها بالاحمرار وقالت له:

ـ كنت سأحدثك بشأنه لكنى انتظرت أن «تشجعنى» أنت على الكلام عنه.

فقال لها باهتمام لم تع كل أبعاده:

ـ تحبينه؟

وأجابته بانحناءة صامتة من رأسها.. فجاش صدره لها فجأة بالعطف و«الحب» حتى كادت تفضحه نظراته وسألها: ومتى ينوى أن يتقدم لك؟ فأجابته بمرارة: دون ذلك أهوال وأهوال.. فإمكاناته محدودة.. وظروف أسرتى كما تعلم.

فتولاه غضب غير مفهوم فجأة وقال لها بحدّة:

. ماذا فى ظروف أسرتك يمنع من تحقيق سعادتك كأختك؟ إن أسرتك عادية ككل الأسر.. وأنت موظفة وهو موظف.. فابدآ الآن فوراً وبلا مرواغة!

فقاطعته قائلة بإشفاق: لكن أسرتى ستعجز عن الإسهام فى زواجى بأى شىء. حتى الحفل العائلى البسيط لإعلان الخطبة قد تعجز عن تكاليفه.. فكيف نبدأ الآن وسط هذه الظروف؟

فازداد انفعاله الغاضب وقال لها: ومن قال لك أولا أن حفل خطبتك سيكون عائلياً وبسيطاً.. ومن قال لك أن أسرتك هى التى ستتحمل تكاليفه؟

أليس لك «أب» سوف يسعده أن يقدم لك هذه الهدية البسيطة؟

فاتسعت عيناها من الدهشة وتعثرت الكلمات فى فمها ثم قالت له:

- .. ولكن!

فقاطعها رافعا إصبعه فى وجهها:

هذا قرارى ولا مناقشة فيه وعليك أن تنفذى كل أوامرى فى هذا الشأن فوراً فادعى هذا الشاب لكى «يخطبك منى» أولا قبل أن يتقدم لأسرتك.. وسأحدد له موعد الخطبة

وأقـوم عنك بكل شـىء ولا أريد مـعـارضـة منك فى هذا الشأن.. مفهوم؟

وظـل رافعـا إصـبعه فى وجههـا مفتعـلاً الحـزم معها فـراحت ترقب لبـرهة وجـهـه الطيب المريح المحـتـقن دائمـاً بالاحمرار من تأثير الخمر ففاضت نفسها له حبا وعطفاً وامتناناً وأجابته ومستسلمة:

ـ مفهوم ياأفندم.. وشكرا لك.

فارتخت أساريره رويداً رويداً وتسلل إليه إحساس غريب بالارتياح والبـهـجـة المشوبة بالحذر من أن يفقـد «سعادته الوحيدة فى الحياة» ذات يوم وقال لنفسه متعجبا من استكثارها عليه أن يفعل ذلك: ماذا دَهَى هذه الفتاة.. ألـم أكن واضحاً مع نفسى حين قلت إننى أريد أن أقدم لها ولمن تحب كل شىء فى الحياة.. كل شىء؟!

٦

لحظات مسروقة!!

نهض من نومه منتشياً بإحساس «المغامرة» التى سيقدم عليها بعد تردد طويل. أحس وهو فى الحمام بمتعة مختلفة للماء الساخن لم يحس بها منذ زمن طويل.

ارتدى ملابسه فى غرفة النوم محاذراً من أن يوقظ زوجته من نومها العميق، وتسلل فى هدوء حاملاً حقيبة الأوراق الجلدية الصغيرة التى ترافقه إلى العمل كل يوم.

فى موعده الصباحى خرج، لكنه يذهب إلى العمل هذا اليوم ولن يحتاج إلى حقيبة الأوراق. ركب سيارته إلى محطة السكة الحديد وأوقفها فى ساحة الانتظار ومنح المنادى بقشيشاً محترماً وتلقى شكره باسماً. دخل إلى المحطة فراقب زحام المسافرين والقادمين بدهشة وتعجب كأنما يراه لأول مرة! تكلفت السيارة برحلاته المتباعدة مع الأسرة والأبناء فى السنوات الأخيرة فتراجعت ذكريات القطار فى حياته. تحسس تذكرة السفر فى جيبه كأنما يتأكد من وجودها فيه ثم اتجه إلى بوفيه المحطة. مازال أمامه بعض الوقت حتى يحين موعد السفر.. وما أجمل فنجان القهوة الساخن فى مثل هذا الصباح المثير. احتسى القهوة بتلذذ غريب وهو يتطلع إلى وجوه الرواد حوله كأنما يبحث عن وجه غائب.

تذكر «الاتفاق» فعاد إلى قراءة الصحيفة مسترخياً، لكن القلب يهفو رغم ذلك إلى التأكد من الالتزام بالتفاصيل

الدقيقة!

نظر إلى ساعته ثم دفع ثمن القهوة وطوى صحيفته وأودعها الحقيبة. نهض متلفتاً حوله للمرة الأخيرة كأنما ليطمئن إلى أن أحداً من رواد البوفيه لايعرفه، ثم اتجه بخطوات سريعة إلى رصيف القطار.

سمع دقات الجرس التى تنذر بقرب تحرك القطار فحثّ خطاه إلى المقدمة بنشاط. دخل عربة الدرجة الأولى رقم واحد وقدم تذكرته لفراش القطار وسار خلفه إلى مقعده.. وهو يتصفح الوجوه بحذر وترقب.

توقف الفراش أمام مقعد خال بجوار سيدة جميلة فى الثلاثينات من عمرها تضع نظارة سوداء على عينيها، فاقترب من المقعد ببطء ممسكاً بورقة مالية صغيرة أعطاها له واسترد منه تذكرته وجلس متجنباً الالتفات إلى جارته المشغولة بالنظر عبر نافذة القطار.

دق جرس الرصيف دقته الأخيرة وتحرك القطار ببطء وتراجع المودعون والرصيف إلى الوراء.. وانطلق القطار فى رحلته التى لن يتوقف خلالها إلا فى محطة الوصول بالإسكندرية فحل الاطمئنان محلّ قلق اللحظات الفاصلة، وأدارت السيدة عنقها الجميل عن نافذة القطار ووشت ملامحها بابتسامة خفيفة وهمست وهى تنظر للأمام:

ـ خفت أن يعطلك شيء فى اللحظة الأخيرة عن المجيء!

فاسترخى فى مقعده مطمئناً ومبتهجاً وأجاب هامساً:

ـ هيهات أن يعطلنى شيء عنك بعد كل هذا العناء!

جاء مفتش القطار فقدم له تذكرته.. وقدمت له السيدة تذكرتها وانصرف إلى باقى الركاب، فما أن ابتعد عنهما قليلاً حتى لكزت السيدة جارها بلطف فى كتفه وقالت له فى مرح:

ـ تكلم دون أن تتلفت حولك خائفاً أو قلقاً كعادتك! نحن الآن فى «سجن» متحرك لمدة ساعتين ونصف الساعة ولن يقاطعنا فيه أحد.. وليس بين الركاب أحد يعرفك أو يعرفنى فتكلم. أريد أن أسمع صوتك طوال هذه الفترة!

وتلاقت عيونهما فى تحفز باسم فضحكا معا بابتهاج.. ثم تدفق نهر الكلام الحلو على الشفاه بلا انقطاع!

كم من الوقت ضاع فى محاولة إقناعه بالإقدام على هذه «المغامرة الجريئة»؟

ليس أقل من أسبوعين ألحت عليه خلالهما كثيراً فى أن يخرج من شرنقة الخوف.. والتردد ليتقدم عليها. قالت له «بغضب» جميل: لا أراك إلا مرة لنصف ساعة كل أسبوعين أو ثلاثة وفى مكتبك حيث يقاطعنا أكثر من مرة الغرباء ولا أتحدث معك فى التليفون إلا مرة كل يومين أو ثلاثة ولعدة

دقائق حتى لا تطول المكالمة وتلفت أنظار العاملين معك فى المكتب والعملاء.. ولا أستطيع زيارتك أو الاتصال بك إلا فى مكتبك وتحت أنظار الآخرين وكلانا محكوم بظروف أقوى منه ولا يستطيع التمرد عليها فى المدى المنظور على الأقل، فإذا كانت الأقدار قد حكمت علينا بألا نلتقى إلا وكلانا مكبل بقيود لايستطيع الفكاك منها.. فلنسرق إذن بضع ساعات من العمر نتبادل خلالها الإحساس بقرب كل منا للآخر ونتحدث بحرية وبلا خوف من أنظار الآخرين أو مقاطعتهم. لقد وعدتنى مراراً بأنك ستفعل شيئا لتحقيق ذلك لكنك لم تفعل.. ولا تريد أن تفعل!

فسألها باستسلام:

ـ ماذا تريدين منى أن أفعل بالضبط؟

أجابت فى هدوء:

ـ لى عمة مسنة تقيم بالإسكندرية ولم أرها منذ عامين.. وقد اشتد بها المرض وأريد أن أزورها وأقضى معها بضعة أيام.. وقد فكرت فى أننا نستطيع أن نسافر معاً بالقطار.. فنستمتع لمدة ساعتين ونصف الساعة بوجود كل منا إلى جوار الآخر وهو مالم يتح لنا منذ ارتباطنا.

هز رأسه بالقبول، فواصلت حديثها وقد زايلها الغضب «الجميل» الذى قرن بين حاجبيها فزادها جمالاً فى عينيه:

لقد رتبت كل التفاصيل.. سأسافر بعد غد فى قطار الصباح وسنحجز تذكرتين متجاورتين وسيذهب كل منا وحده إلى محطة القطار.. وسأركب القطار أولاً وأجلس فى مقعدى وأطمئن إلى عدم وجود أحد من أقاربى أو معارفى فى نفس العربة.. وتنتظر أنت حتى يوشك القطار على التحرك فتركبه فى اللحظة الأخيرة وتجدنى فى انتظارك وقد طلبت فنجانين من القهوة ثم نتظاهر بأننا تعارفنا فى القطار.. ونستغرق فى الحديث الممتع حتى تنتهى الرحلة.. وتعود أنت فى نفس اليوم إلى القاهرة!

استمع «للتفاصيل» الدقيقة التى قدمتها له للرحلة ثم قال لها باسماً:

رتبت كل شىء .. ولم يبق إلا التنفيذ.

فأغنى الصمت عن الكلام.

«قارن» للحظات بين «غضبها» الجميل الذى لم يتجاوز التقريب بين حاجبيها ثم لم يلبث أن اختفى بعد دقائق، وبين غضب «الأخرى» المدوّى الذى تتدافع معه الكلمات الجارحة من الفم الأخرق ولا يفلح معه رجاء ولا توسل لضبط النفس وعدم إشعار الأطفال بمشكلتهما حتى لا يتبدد أمانهم وتتكدر أوقاتهم، وتعجب كيف كانت هذه «الأخرى» نفسها هى السبب فى التقائه بمن عوضته عن تعاسته وأشعرته

بجمال الحياة.

ذات يوم منذ أكثر من عامين.. قالت له زوجته إن جارةً مطلقة لإحدى قريباتها تسأل عن مهندس معمارى لتطلب مشورته فى أمر يهمها فأشارت عليها قريبتها به وطلبت من زوجته تحديد موعد لاستقبالها.

جاءت فى الموعد.. فأحس بألفة غريبة وهو يصافحها كأنما يعرفها من قبل.. دعاها للجلوس فى احترام ثم طلب لها فنجانا من القهوة وتوجه إليها باهتمامه فعرضت عليه مشكلتها. كانت ترغب فى إجراء بعض التعديلات فى مسكنها وإزالة أحد الحوائط. لكن مالك العمارة يعترض بدعوى تعريض المبنى للخطر، فطلب منها معاينة المسكن والعمارة وتوجه إليها فى اليوم التالى فاستقبلته بحفاوة فى فستان محتشم أنيق. تنقل بين أرجاء المسكن لإجراء المعاينة الضرورية فلاحظ خلوه إلا منها ومن طفلتين صغيرتين أكبرهما فى التاسعة.. ووشى الأثاث والستائر وألوان الحائط بذوق جميل يتناسب مع جمال وجهها الحزين. رجع إلى الصالون وأعاد النظر فى التعديلات المقترحة وانتهى إلى قراره بأنها لا تعرض سلامة المسكن للخطر فسألته باستحياء عما إذا كان يستطيع أعطاءها شهادة موقعة منه بذلك فأجابها بالترحيب.

وبعد يومين زارته لاستلام الشهادة وحاولت مكافأته مادياً على مشورته الفنية فاعتذر بإصرار مهذب. وتلقى منها بعد ساعات باقة زهور وعلبة شيكولاتة فاخرة.

وبغير قصد منه عرف شيئاً هاماً عن حياتها الشخصية فلقد رجع إلى بيته ذات مساء فوجد قريبة زوجته التى رشحته لها فى زيارتهم، وشكرته كثيراً على مساعدته لجارتها .. وتطوعت للحديث عن طيبتها ووداعتها ورزانتها وحسن جيرتها ثم أردفت ذلك بالتعجب لسوء حظها فى الحياة رغم جمالها ومميزاتها العديدة.

وتنبه إحساسه بشدة حين مال الحديث إلى سوء حظها .. وتساءل مغرياً قريبة زوجته بالحديث:

- وكيف كان سوء حظها فى الحياة؟

فروت له أنها ابنة وحيدة لأب مستشار بالمعاش يقيم فى شقة أخرى تعلو شقتها .. وقد ارتبطت وهى طالبة بالجامعة بزميل لها وأصرت على الزواج منه رغم معارضة أبويها وتوجسهما من نيته تجاهها، فهى وحيدة وقد باع أبوها ما ورثه عن أبيه من أرض زراعية وأودعه باسمها فى البنك لزواجها ونفقات حياتها، والشاب الذى رغبت فى الزواج منه مستهتر ولا يملك شيئاً ولايخفى رغبته فى الاستفادة بمدخراتها .. وهى بعين الحب لاترى فيه الا صورة فارس

أحلامها فتزوجته وتكفلت بمعظم تكاليف الزواج.. وأغرى أبوها ساكناً يقطن تحت شقته مباشرة بإخلاء شقته بمبلغ كبير واستأجرها لها وسجل عقدها باسمها، وتزوجت فتى أحلامها وأنجبت منه طفلتين وعملت بمرتب لا بأس به.. وأنفقت من مالها الكثير على حياتها حتى استمرأ زوجها الشاب قيامها بمعظم نفقات أسرته وبدأ يطالبها بنقل عقد شقة الزوجية إلى اسمه، فكادت تفعل لولا أن منعها أبوها بعد جهد جهيد ثم طالبها زوجها بسحب مبلغ ليس صغيراً من مدخراتها ليشارك به صديقاً له فى عمل تجارى خاص واعداً إياها برده له بعد عام. واستجابت لرغبته سراً فتبدد المبلغ فى الهواء.. وطالب بالمزيد والمزيد واضطرت لمصارحة أبويها بما فعلت.. فساءت علاقتهما بزوجها وساءت علاقته بها.. وبدأ يعتدى عليها بالضرب والسب ويهجر البيت ويعود إليه.. ثم تسربت إليها أنباء خياناته العديدة.. ففسدت حياتهما نهائياً.. وطلبت الطلاق وحصلت عليه بعد عناء شديد وتنازلت له مقابله عن دينها عليه وكل حقوقها وحقوق طفلتيها، وراح هو يتخبط فى حياته وعلاقاته النسائية ومن حين لآخر يهددها بأن ينتزع منها طفلتيها إذا تزوجت فزهدت فى الزواج واحتضنت طفلتيها وكرّست لهما حياتها.

خفق قلبه وهو يسمع هذه «المعلومات» الثمينة وتعجب من نفسه لماذا يهتم بأن يعرف عنها كل ذلك؟

وعادت السيدة للحديث عن جارتها الجميلة الرقيقة المهذبة العاقلة ففوجىء بضيق زوجته المفاجىء بالحديث وقولها لقريبتها:

- كيف تعرفين أنها كذلك فعلاً.. وأنت لم تعاشريها فى بيتها ولم تعرفى حقيقة طباعها وأخلاقها؟

فتوقفت القريبة التى تعرف جيداً «طلعات» زوجته وحدتها المفاجئة وتراجعت كأنما تعتذر عن «مدح» سيدة أخرى فى حضورها:

- هذا ما يبدو لى منها فى الظاهر.. والله أعلم بسرائر الناس!

تأمل حدّة زوجته وتقلبها المفاجىء المألوف فتساءل صامتاً:

كيف تجود الحياة على مثلها بالاستقرار العائلى فتبدو للآخرين زوجة ناجحة ومستقرة.. وما استمرت عشرته لها ولا نجا زواجه منها من الانهيار إلا بصبره على عصبيتها وفظاظتها وإصراره على ألا يحرم أطفاله من حياتهم الطبيعية تحت سقف واحد مع أبويهما!

عادت المطلقة التعيسة لزيارته بعد أسابيع لاستشارته فى تكاليف التجديدات المقترحة بعد أن لاحظت مغالاة مهندس الديكور فيها فقدم لها خبرته بإخلاص.. وطلب

منهـا دعـوة المهندس لزيارتـه مـعـهـا فى مـوعـد لاحق، واستقبلهما معاً فى اليوم التالى وتوصل مع مهندس الديكور لحل مرض للطرفين. ومن جديد حاولت مكافأته مادياً عن جهده معها فاعتذر بإصرار أشد، واعترف لنفسه بأنه يحس بسكينة غريبة حين تتحدث إليه!

تكررت اللقاءات بعد ذلك.. وتكرر افتعال المناسبات للاتصال والزيارة فترسخ التفاهم الصامت تدريجياً فى الأعماق.. ولم تبق إلا المصارحة.

لم يسمح لنفسه وهو الأب والزوج بأن يقدم على أية مبادرة معها، فلم يطل به الوقت حتى وجدها تعترف له هى بحبها العميق فى صراحة آسرة. وقبل أن ينطق بأى جواب عاجلته بأنها تعرف عنه كل شىء.. وتعرف أنه ليس سعيداً فى حياته الخاصة ولا يريد أن يدفع أطفاله ضريبة تعاسته.. وأنه ليس «مغامراً» ولاعابثاً ولايفكر فى تغيير حياته أو بدء حياة جديدة مع أخرى.

فأحنى رأسه مستسلما ثم قال لها بعد لحظة صمت: وإذن؟

فأجابته بنفس الوضوح: وإذن فأنت الرجل الوحيد الذى يناسبنى من بين الرجال لأنك أمين وطيب ومستقيم ومريح.. ولا تريد أن تتزوجنى!

فاتسعت عيناه من الدهشة وتساءل بنظراته وصوته:

- وكيف يكون الجزء الأخير من حديثك.. من «مميزاتى»!

فأجابته ببساطة: لأننى أيضاً لا أريد الزواج حتى لا أفقد ابنتى وأهيىء الفرصة الثمينة التى ينتظرها زوجى السابق لإيلامى ومنازعتى فيهما!

فتجرأ قليلاً وقال لها: لكنى.. لكنى.. لا أستحل لنفسى أن ألمس سيدة لا تربطنى بها علاقة مشروعة؟

فقالت له بدهشة:

- ومن أدراك أنك سوف تلمسنى أو أننى سأسمح لك بذلك.. إننى أم محترمة ولست طائشة أو عابثة ولم تتجاوز علاقتى بك الأحاديث التليفونية القصيرة من حين لآخر.. وزيارتى لك فى هذا المكتب حين يشتد بى الحنين للقائك كل أسبوعين أو ثلاثة ويكفينى ويكفيك أيضاً أن يحس كل منا أن له شخصاً عزيزاً لا يعلم به سواه يحبه ويهتم بأمره.

واختلفت حياته وحياتها كثيراً بعد هذا التفاهم الصريح!

فتجدد إقباله على الحياة وازدادت قدرته الشخصية، واختفت النظرة الحزينة من عينيها وحلت محلها نظرة مطمئنة مترعة بالأمل فى الحياة.

وعايش كل منهما الآخر فى خياله كل لحظة.. وعرف عنه كل شىء لكأنما يعيش معه تحت سقف واحد.. وأصبح

كلاهما لا يتخذ خطوة صغيرة أو كبيرة فى حياته الخاصة إلا إذا استشار شريكه فى الحب والسعادة واستنار برأيه فيها، فعايش كل شئون طفلتيها وأبويها وأسرتها ومشاكسات زوجها السابق لها، وعايشت هى كل شئون عمله وحياته العائلية وأبنائه.. وتشاربا الحب والعطف والحنان. والتزما بالحدود التى تراضيا عليها لعلاقتهما رغم نداءات التمرد التى قد تشتد على أحدهما من حين لآخر فيكبحها.

لكنها بعد عامين طويلين رغبت فى توسيع «الحدود» قليلاً وتشكت من قصر أوقات اللقاء وتباعدها ومن تحفظه معها خلال زياراتها لوجود عملائه أو مساعديه فى الجوار، فألحت عليه فى كسر الحدود الجامدة بعض الشىء والسفر معها ليستمتع كل منهما بقرب الآخر منه وبحديثه إليه طوال رحلة السفر.

فبدأت «المغامرة» التى تهيبها طويلاً!

وتواصل الحديث العذب طوال رحلة القطار.. واستمتعا بتناول الإفطار فيه.. واحتساء الشاى، وكلما مر بهما راكب تفحصاه فى اهتمام خشية أن يكون من معارفهما حتى قالت له فجأة بأسف باد:

- يا خسارة.. اقتربت الإسكندرية سريعاً على خلاف كل رحلاتى السابقة.. وبعد قليل سيودع كل منا الآخر ونعود

للقاءات القصيرة المتباعدة!

فعكست نظرته أسفاً مماثلاً وقال: نعم مضى الوقت سريعاً فكأنه ليس من الزمن.

راقبت اقتراب أرصفة محطة الإسكندرية بقنوط وسألته:

ماذا سنفعل بعد الوصول؟

فأجابها: سأنتظر فى بوفيه المحطة ساعتين إلى أن يرجع نفس هذا القطار للقاهرة وأعود به إلى عملى وحياتى!

لفظ القطار آخر أنفاسه.. وتوقفت عجلاته تماماً فنهض الركاب من مقاعدهم.. وانشغلوا بإنزال الحقائب وتسوية ملابسهم استعداداً للنزول..

فهمست له: فلنتصافح هنا لأنى قد أجد أحد أبناء عمتى فى انتظارى على الرصيف.

فصافحها ببطء كأنما يريد تأخير لحظة الفراق ثوانى أخرى وحملت حقيبتها الصغيرة.. ثم تقدمته فى الممر وهو يسير خلفها مباشرة يرقب شعرها الجميل ومؤخرة رأسها بحنان غريب. تقدم الطابور قليلاً فالتفتت برأسها إليه فجأة والتقت عيناها بعينيه فى نظرة وداع باسمة تحركت لها مشاعره.. ثم استدارت برأسها وتحركت ببطء فى

الطابور الزاحف للأمام فقاوم رغبة طاغية فى أن يمسك خصلات شعرها الجميل المتدلية على مؤخرة رأسها كأنما ليؤكد لنفسه أن هذه السيدة الجميلة التى تتقدمه فى الطابور ليست راكبة عادية كباقى الراكبات.. وإنما هى شىء ثمين يخصه وحده من بين الجميع.

اقتربت السيدة الجميلة من مقدمة العربة.. فأحس بالقنوط لانتهاء الرحلة سريعاً وتذكر أنه قد لايراها بعد هذه اللحظة قبل أسبوعين أو ثلاثة فهمس لها بصوت خفيض:

- أريد أن أصاحبك فى رحلة العودة بعد أيام فاحجزى تذكرتين متجاورتين وأبلغينى تليفونياً بموعد عودتك لأركب قطار الصباح إليك.

فوشى جانب وجهها بابتسامة راضية.. وأحنت رأسها الجميل بالموافقة.. كأنما كانت تنتظر منه هذا الاقتراح السعيد!

غادرت القطار وهو يسير خلفها عن بعد كأنما لاتربطه بها صلة.. وكأنه لم يشعر منذ سنوات طويلة بالأمان والرضا عن نفسه وحياته إلا معها حتى رآها تصافح فى نهاية الرصيف رجلاً وسيدة متوسطى العمر وتتجه معهما إلى باب المحطة فتابعها بعينيه حتى اختفت.. ثم اتجه ببطء وتثاقل إلى بوفيه المحطة.. وهو يفكر:

- من يدرى.. ربما تصحح الحياة بعض أخطائها المؤلمة ذات يوم قريب!

٧

الحلم الذى كان !!

جاءت إليه فى مكتبه مع زوجها.. قال له الزوج إن «المدام» لها قضية تريد أن تستشيرك فيها، فاعتدل فى جلسته وتوجه إليها باهتمامه مترقباً أن تبدأ الحديث.. رآها حانية الرأس بادية الخجل والوداعة فتساءل فى باطنه أى نوع من القضايا يمكن أن يشغل هذا الرأس الجميل؟

روت له عن متاعبها مع صاحبة العمارة التى تقيم بها وكيف تتصيد لها الأخطاء وتفتعل الأسباب لتحرر ضدها المحاضر بقسم الشرطة بافتراءات مختلفة.. وكيف بلغت قمة عدوانيتها مؤخراً فأقامت ضدها دعوى قضائية لطردها من مسكنها بحجة مخالفة بنود عقد الإيجار..

تحدَّثت بصوت رقيق خافت ووشى وجهها الجميل بالطيبة والبراءة والسذاجة فتعجب كيف يقدر أحد على معاداة صاحبته الوديعة؟.

سأل عن بعض التفاصيل واطلع على بعض الأوراق ولاحظ أن عقد الإيجار مكتوب باسمها وليس باسم زوجها وانتهى من تقييمه للموقف، فاعتمد بذراعيه على المكتب وقال لها بثقة:

- اطمئنى يا هانم موقفك سليم من الناحية القانونية وستخسر صاحبة العمارة دعواها ضدك.

استراحت السيدة الجميلة لما سمعت وتبادلت نظرة ذات

معنى مع زوجها الصامت ثم قالت لمضيفها:

- إذن هل أطمع فى أن تتولى هذه القضية.. وتدافع عنى؟.

جاءت لحظة الحرج التى توقعها منذ حدثه صديقه المحاسب الكبير عن رغبة هذه السيدة وزوجها فى استشارته فى أمر هذه القضية. فقد توقع هذا المطلب رغم إبلاغ الصديق له أنه قد أكد لهما اعتزاله الممارسة العملية للمهنة منذ سنوات، واكتفاءه بعمله كمستشار لشركة كبرى يكاد يعتمد عمله فيها على مراجعة العقود من الناحية القانونية.

استرخى فى مقعده الكبير وقال لها فى حرج: كنت أتمنى ذلك حقاً ياسيدتى لكن وقتى لايسمح به للأسف فمعذرة.. وإن شئت فقد أستطيع أن أرشح لك محامياً أميناً من معارفى.

فارتسمت الخيبة بوضوح على وجهها الجميل لكنها لم تيأس رغم ذلك من تأثير جاذبيتها التى لاتقاوم فقالت له:

يا خسارة.. إن المحامين كثيرون.. لكنى كنت أريدك «أنت» لما سمعته عن أمانتك وكفاءتك وها أنت تبخل علىَّ بوقتك فشكراً.

اكتفى بابتسامة الاعتذار الصامتة متحاشياً التورط فى قبول عمل لايريده فنهضت السيدة وزوجها وصافحاه باحترام وانصرفا شاكرين.

خلت عليه غرفة مكتبه.. فعاد إلى أوراقه وهو يستعيد فى مخيلته صوتها وهى تقول له «أنت» بدلال أنثوى محسوب ولا يُرى بالعين المجردة.. فلم تفُت عليه دلالته وتذكَّر ما رواه له صديقه عن جاذبيتها ونعومتها فى التعامل مع الجميع وعن تأثيرها القوى على زوجها المفتون بها فهز رأسه كأنما ينفض عنه أى أثر لهذه الجاذبية مهنئاً نفسه على صموده. مضت سبع سنوات منذ استسلم للضعف لآخر مرة فى حياته أمام سيدة جميلة مثلها فعاش معها قصة حب دامية كادت تعصف باستقرار حياته العائلية، واحتملته «صبرية» زوجته كثيراً فى تلك الأيام العصيبة حتى فاض صبرها بعد عامين طويلين فهجرته وطلبت الطلاق.. وهمّ بأن يطلقها بالفعل مضحياً بكل شىء حتى بابنته الوحيدة ريهام.. فإذا «بالحبيبة» التى زلزلت كيان أسرته تتراجع فى اللحظة الأخيرة وترفض الانفصال عن زوجها لتتزوجه.. وتكشفت له حقيقتها سافرة: لا بأس «بالحب» مع استمرار حياتها الزوجية.. لكن الانفصال وتمزّق الأبناء شىء آخر!. فكره كل شىء.. وغالب حبه لها طويلاً حتى تغلَّب عليه وعاهد نفسه على ألا يضعف أمام امرأة أخرى إلى نهاية العمر.. واستعاد زوجته بعد عناء مرير ورضىَ بحياته معها.. فماذا تريد منه الآن هذه السيدة الجميلة؟.

فوجىء فى اليوم التالى لزيارتها له بصوتها فى الصباح

الباكر يجيء إليه متسائلاً فى خجل: عفواً لإزعاجك لقد رفضتَ قضيتى لأسباب تقدِّرها.. ولا أملك إلا احترام رغبتك.. لكن هل.. هل تمانع أيضا فى أن أستشيرك من حين لآخر فى تطورات القضية؟

لم يستطع الاعتذار هذه المرة وأبدى لها استعداده لذلك متظاهراً بالحماس والترحيب، وعاد إلى عمله وحياته فنسى أمرها وأمر قضيتها.. لكن السيدة الجميلة لم تدعه لشأنه طويلاً.. فقد كررت الزيارة له مع زوجها وتحدثت هى طوال الزيارة واكتفى زوجها بالصمت وتأييد كلامها من حين لآخر.. فلاحظ قدرتها الفائقة على اجتذاب اهتمام محدثها، وجاذبية حديثها بالمقارنة بعجز زوجها الواضح عن التواصل مع الآخرين وعقم حديثه.

وفى ختام الزيارة قالت له بابتسامة مغرية: هل تخجلنى مرة أخرى برفض دعوتى لك إلى العشاء فى بيتى؟

قبل دعوتها شاكراً.. وتوجه إليها فى الموعد المحدد حاملا علبة من الشوكولاته الفاخرة فتلقته وهى فى كامل زينتها بترحيب حار واحتفاء كبير، وأشعرته طوال الجلسة باهتمامها الخاص به دون أدنى حرج من زوجها الجالس فى هامش الصورة، وقادت الحديث ببراعة وحيوية وخفة ظل طبيعية فمضى الوقت خفيفاً ممتعاً.. وغادر بيتها عند

منتصف الليل ورأسُه يدور بنفس السؤال: ماذا تريد هذه السيدة الجميلة؟

تكرر اتصالها به فى مكتبه فى الصباح بعد ذلك باختلافات واضحة.. وكلما أمعن فى التغابى والهروب ازدادت إصراراً على اجتذابه إليها واحتوائه.. حتى بدأ يشعر بالحرج تجاه زوجها الذى تردد عليه أكثر من مرة بشأن القضية وبدا له حريصاً مثلها على تعميق صلته به.

تطور الحديث بينه وبينها خلال اتصالاتها به من القضية إلى حياتها الشخصية فروت له «بتأثر» كيف أنها تشعر بحرج وضعها كزوجة.. وهى تتصل به وتبدو أمامه حريصة على استمرار صلتها به.. فى حين يتفادى هو الاتصال بها وزيارتها.. لكن عذرها فى ذلك أنها تشعر معه بالأمان وبأنها تستطيع الاعتماد عليه فى شئون كثيرة وليس فى القضية وحدها فى حين تضطرها الظروف لأن تقدم هى لزوجها الحماية النفسية وهى فى أشد الحاجة إليها من رجل بمعنى الكلمة.. مثله!

وتهاوت الحصون واحداً وراء الآخر على مرّ الأيام فوجد نفسه يترقب اتصالها شبه اليومى.. ويزداد اهتمامه به.

وبتدبير مُحكم توقفت عن الاتصال به بضعة أيام فأحس باضطرابه ولهفته على سماع صوتها لكنه قاوم رغم ذلك

الاتصال بهاحتى النهاية. ثم جاءه صوتها بعد الغياب عاتباً: أهكذا تهتم «بأصدقائك».. فلا تسأل «عنهم» فى مرضهم؟

اعتذر بجهله بمرضها عن تقصيره لكن الجميلة لم تقبل بأقل من زيارة بيتها للاعتذار وإبداء الاهتمام، فرحب بذلك وهو يشعر فى أعماقه بأنه يسير فى طريق الهاوية الذى سار فيه من قبل ولا يستطيع مغالبة أقداره.

بادرها بتحديد موعد الزيارة لكنه تساءل.. أليس من اللياقة أن تجئ الدعوة من زوجها؟. فجاءه جوابها غير المتوقع: إنه جالس إلى جوارى الآن ويسمع ما أقول لك!

زارها فى بيتها فى المساء وطالت الجلسة حتى منتصف الليل فاقتنع فى نهايتها بأنه لم يكن ليطيق البقاء بهذا البيت أكثر من نصف ساعة لو كان يجالس فيه زوجها وحده.. إنه شاب طيب يقترب من الأربعين ويعمل محاسباً لكنه محدود الخبرات.. ولا يكاد يتحدث إلا عن عمله الحكومى فى الصباح.. وعمله فى مكتب المحاسبة بعد الظهر.. وهو موجود فى الجلسة وغير موجود حتى خيل إليه فى بعض فترات اللقاء أنه «يتطفل» على الحديث الممتع بينه وبين تلك السيدة الجذابة.. فيقطعه برواية قصة لا مبرر لها عن عمله.. ويتأدب هو فيظهر الاهتمام بسماعها وتبدو الجميلة نافدة الصبر تنتظر فراغه من قصته المملة لتواصل حديثها

الممتع مع الضيف الذى يحظى باهتمامها!

أما هى فقد بدت له كالقطة الأليفة التى تحب أن يربت الجميع على ظهرها فى كل وقت لإشعارها بالحنان والاهتمام.

وفى اتصالها الصباحى به فى اليوم التالى قالت له بصراحة آسرة إنها تعرف أنها البادئة بالعلاقة وتطلب ما ليس من حقها لكن عذرها فى ذلك أنها «تحب» ولا تخشى فى ذلك إلا أن يسىء بها الظن ويظلمها فيظنها امرأة عابثة!.

فحل التفاهم الصريح محل الإشارات والإيماءات وقرر أن يستفيد من تجربته السابقة فصارحها منذ البداية بإصراره على ألا تتجاوز علاقته بها حدود المشاعر العاطفية والاهتمام الشخصى وأنس الصحبة العلنية تحت مظلة الصداقة ووافقته على ذلك من ناحية المبدأ.. تاركة للأيام - كما قالت له - أن تحدد الإطار الملائم لعلاقتهما فى المستقبل!.

وشيئاً فشيئاً تشكلت ملامح حياتهم الجديدة هو وهى وزوجها واستقر فى أذهان المحيطين بهم، فأصبح نظام حياتهم أن يلتقوا كل مساء تقريبا ويمضوا السهرة معا حتى منتصف الليل إما فى مسكن القطة الأليفة.. أو فى أحد

المحلات العامة.. والحديث ممتع و«الصداقة» صافية والإخلاص حقيقى ومتبادل بين الثلاثة.. فلا يبت أحدهم فى أمر يخصه دون استشارة الآخر.. والأسرار مستباحة بين الجميع حتى عرف عنها وعن زوجها كل دخائلهما وصارحهما هو أيضا بما لم يصارح به أحداً قبلهما.. ولا شىء فى الجو يشير إلى العلاقة الخاصة بينه وبينها سوى اهتمامها الزائد به الذى يشعره بالحرج أحياناً أمام زوجها.. وسوى بعض اللفتات المختلسة كنظرة ولهانة عند الاستقبال أو لمسة يد خفية أثناء تقديم الشاى.. أو دغدغة متعمدة من قدمها لقدمه تحت المائدة. أما كلمات الحب والعشق فتنساب بغزارة فى اتصال الصباح.. وفيه أيضا تكتمل جوانب الصورة بعد افتراقهما فى الليلة السابقة، فتحكى له ماذا فعلت وماذا قال زوجها ثم تسأله باهتمام عن صبرية زوجته وكيف استقبلته عند العودة فى منتصف الليل.. وهل تشك فى أى شىء إلخ.

وازدادت العلاقة عمقا بين الأصدقاء الثلاثة.. وعند حد معين لم يكن هناك مفر من أن تتداخل الحدود أيضا بين الأسرتين، فدعاها وزوجها إلى بيته، وردا إليه الدعوة العائلية.. وترقب متوجسا رد فعل زوجته «صبرية» واستعد لمواجهة شكوكها القديمة.. فإذا بها تبدو راضية ومطمئنة إلى الصديقة الجديدة.. ولاحظ بإعجاب أن القطة الأليفة

رغم تحفظ زوجته المألوف مع الغرباء قد اكتسبت حبها وثقتها بسهولة غريبة فكأنما قد خُلقت لأن تُحب من الجميع رجالا ونساءً.

فاطمأن قلبه من ناحية صبرية وواصل إبحاره مع القطة الجميلة فى قارب الحب، ومن حين لآخر تسأله القطة:

ـ لو طلقت من رفعت زوجى.. هل تتزوجنى؟ إنك لو فعلت فسوف تعيش أسعد أيامك إلى نهاية العمر وسأعيشها أنا أيضا.. فلقد كانت أمنيتى دائما أن أتزوج ممن أحب وأكرس حياتى له وأهدهده وأدلله .. وأتلاشى فى شخصيته وأجلس تحت قدميه وأسعد برؤيته وهو ينهى ويأمر فى كالملك المتوج!

ثم يسيل دمعها متحسرا على «الحلم» الذى لا تسمح الدنيا بتحقيقه.

لم تكن غائبة عن الواقع.. لكنها كانت تستجيب لطبيعتها فتستسلم أحيانا للأحلام الجميلة.. فقد تزوجت وهى طالبة من زوجها زواجا تقليديا.. وتعلق بها زوجها منذ البداية وأحبها حبا ملك عليه نفسه، أما هى فقد قبلت به طامعة فى أن تخلق العشرة بينهما الحب الجميل فأنجبت طلفتها الوحيدة.. واستمتعت بحب زوجها الكبير وانطوت له دائما على إحساس بالعطف والاعتزاز بحبه لها. لكن السنوات

مضت ومؤشر مشاعرها تجاهه يتجه إلى الهبوط ومؤشر حبه لها يتجه إلى الصعود فى الحب الكبير الذى يحتويها ويغمض عينيها عن كل شىء فى الحياة.

ورغم إدراكه هو لأن القطة الأليفة لابد وأنها قد بحثت قبل أن يعرفها عن «الحب الكبير» لدى غيره فقد كان يجيبها على سؤالها الحالم له كل مرة بالإيجاب وهو يعرف جيدا أنها لن تُقدم على هجر زوجها وطفلتها، وهى تعلم جيدا أنه لن يضحى بزوجته وابنته، لكن إجابة السؤال كانت ترضيها وتشعرها بأنها امرأة مُحبة تصادف أن التقت بالحب الذى تنشده وهى «للأسف» زوجة وأم، لكنها ليست مجرد امرأة عابثة تستهين بالروابط الزوجية بلا ندم!.

أما زوجها رفعت فقد زادته الأيام معرفة به فأدرك عمق حبه لها وتمحور حياته حولها.. وأيقن أن علاقته بزوجته أبدية وأنه ليس بمستبعد أن يقتلها أو يقتل غريمه ذات يوم إذا أحس بأنه فقدها إلى الأبد.

ورغم ذلك فلقد أثار حيرته فى كثير من الأحيان فلقد كان يبدو فى بعض الأحيان غافلا عما يدور حوله مما يستلفت انتباه أى مراقب آخر بسهولة.. وكان يبدو له فى أحيانا أخرى واعيا بكل شىء لكنه يتجاوز عنه مقهورا بحبه لها أو مطمئنا إلى أنه يجرى فى النهاية فى حدود الأمان

التى لا تهدده بفقده زوجته!. بل وخيل له أكثر من ذلك أنه إنما يعتمد فى ذلك عليه «هو» وليس على زوجته التى لابد قد أدرك بالعشرة ضعفها أمام نداء القلب إذا تحرك، فأمل فى التزام الصديق الجديد بأسرته وبوابات الصداقة فى ألا تتعدى القصة حدود الإعجاب «البرىء» من ناحية زوجته!.

والحياة تمضى بالأصدقاء الثلاثة.. وبعد عام من بداية القصة استقرت الملامح والحدود.. وتحت مظلة «الصداقة المخلصة» استمتعت القطة الأليفة بأن تكون محور اهتمام رجلين يحملان لها مشاعر الحب الصادق وتخص هى أحدهما بحبها.. وتتقبل من الآخر حبه وعشقه بامتنان وتجزيه عنهما عشرة جميلة طيبة وعطاء مخلصا لبيتها وأسرتها.

وأصبح مألوفا بين «الرجلين» إذا التقيا فى غيابها ألا يكون لهما حديث إلا عنها وعن كل شئونها وأن يسترجعا بتلذذ واضح كلماتها وحكايتها كأنما قد استقر التفاهم الصامت بينهما على أنه إنما يجمع بينهما حب كل منهما لها بطريقته الخاصة!.

لكن الأيام حملت للاثنين معا بعد عامين من التجربة نذيرا مزعجا.. فلقد مرضت طفلة القطة الأليفة مرضا شديدا فاستنجد زوجها بطبيب أطفال لإنقاذها، وجاء

الطبيب لعيادتها وتكرر تردده على البيت.. فإذا به يقع تحت تأثير جاذبية سيدة البيت ونعومتها المعتادة مع الآخرين.. وإذا بالعلاقة العابرة تتحول إلى «صداقة عائلية» جديدة لا تخفى دوافعها على عين المحب.. وإن خفيت عن عين زوجها، وبحماقته واعتياده ألا يقر له قرار فى غير حضور زوجته المحبوبة ساعد على فتح الثغرات بدلا من أن يسدها.. فحنق عليه صديقه المحامى فى قرارة نفسه وتساءل صامتا: لماذا تترك لى دائما مهمة الغيرة على زوجتك.. وإبعاد الغرباء عنها؟ فلم يكن طبيب الأطفال أول متطفل على حياة الأصدقاء الثلاثة خلال رحلتهم معا.. وإنما سبقه من قبل مقاول شاب احتاجت إليه الأسرة لتجديد طلاء مسكنها فتكررت المقدمات المألوفة والنتائج المتوقعة، وشهدت علاقته بها أول أزمة حقيقية منذ عرفها فاتهمها «بالاستمتاع» برغبة هذا المقاول الشاب فيها وتشجيعه عليها.. وبكت طويلا ونفت عن نفسها التهمة.. واتهمت زوجها بتوريطها فى المشكلات من حيث لا يدرى.. ولم يقتنع بدفاعها عن نفسها وقاطعها لفترة بذلت خلالها كل جهدها لاسترجاعه.. فعاد إليها وهو يحس بأن ثوب الحب الأبيض قد تنغص ببقعة كبيرة سوداء.. ورغم ذلك فقد رجع واستسلم لمشاعره معها وإن لم يخل منذ ذلك الحين من سوء ظن بطبيعتها القططية التى قد تستنيم لأى يد تربت على ظهرها بإعجاب.

ومضت الأزمة بسلام.. لكن ها هى تتكرر بعد أقل من عام فهل فَتُر الحب.. وآذن بالوداع؟.

راقب مراوغاتها له ومحاولاتها لإقناعه بخطأ ظنونه فى أسى عميق وهو يسأل نفسه: هل آن الأوان لأن يقنع بما يقنع به زوجها من تفسيرات خادعة وأكاذيب؟ وإذا كان حرصها على استمرار الزواج لصالح الطفلة الوحيدة هو الذى يدفعها إلى ذلك مع زوجها فما الذى يدعوها لخداعه وليس لاستمرار علاقتها به من مبرر سوى الحب؟

طال ظهور طبيب الأطفال فى أفق أسرة القطة الأليفة.. وطالت مراوغاتها فاعتذر عن سهرته شبه اليومية معها بمرض طارىء.. واحتجب فى بيته مشاركا صبرية وابنته ريهام جلستهما المسائية أمام التليفزيون، فجلس بينهما بذهن غائب وقلب ممرور. وراقب صبرية وهى مستغرقة فى متابعة الفيلم المعروض فى اطمئنان.. وسأل نفسه كيف لم تتنبه خلال العامين الأخيرين إلى كل ما جرى تحت السطح رغم العلامات الواضحة؟. هل تعامت عامدة لكى لا تكرر المحنة التى كادت تعصف بحياتهما معا من قبل؟. أم تراها قد استسلمت لثقتها فيه بعد أن تلقى درس التجربة والتزم بالإخلاص لها سبع سنوات كاملة؟. وفجأة أحس بالرثاء لها والأسف أيضا وقال لنفسه: طيبة ومتدينة وربة أسرة أمينة وقد أحسنت تربية ريهام فكادت تستوى شابة جديرة بأن

يفخر بها كل أب.. فلم يهفو القلب أحيانا لما يعده بالعذاب؟

ونام ليلته مسهدا.. وتكرر انتحاله للأعذار لتفادى لقاء القطة وزوجها.. وجاءه رفعت يحاسبه على ابتعاده أشد الحساب فوجد نفسه يزداد إصراراً عليه، وقد حرره ابتعاده عن مركز التأثير المغناطيسى من سحر القطة الأليفة.. وأتاح له تأمل جوانب شخصيتها بموضوعية أكثر فرأى فيها خدوشا عميقة لم يرها من قبل، فالقطة جميلة وجذابة وعطاؤها لمن تحب كبير، لكنها من الناحية الأخرى تستمتع كثيرا بأن تختبر جاذبيتها من حين لآخر مع الغرباء وتسعد بغيرته عليها.. ثم تبكى وتتوسل وتشكو ظلم حبيبها لها حين يتهمها بتشجيع الآخرين على الاجتراء عليها، ويهجرها فلا تهدأ حتى تستعيده مقسمة له على حسن نيتها.. وسوء ظنه بها!.

تأمل الصورة بعد لحظة التنوير فازداد إصرارا على الابتعاد عنها.. وفوجىء بها فى مكتبه فى الصباح بعد أيام تبكى بين يديه وتؤكد له أنها كانت تتصور أنها تتصرف مع طبيب الأسنان بطريقة طبيعية إلى أن فوجئت به يكشف عن «نيته السيئة» فحرضت زوجها على سد باب بيتها فى وجهه!.

ثم طالبته بالعودة على وعد أكيد ألا تتكرر المحنة مرة أخرى فلم يلن ولم يرق لها قلبه، وعاملها بتحفظ مشوب بشىء من الازدراء لأول مرة فانصرفت غاضبة وإن لم تيأس

من استرجاعه بعد حين.

لكنه استعان بإرادته القوية على مقاومة بقايا رصيدها فى قلبه وتعمد التهرب من اتصالاتها الصباحية.. وتفادى زياراتها له مع زوجها فى مكتبه فى المساء وفاجأ زوجته صبرية وابنته ريهام باصطحابهما إلى المصيف قبل موعدهم المعتاد بشهرين، ورجع من المصيف كالمريض الذى تجاوز مرحلة النقاهة.. وإن لم يسترد بعد عافيته القديمة.

وكانت المحنة الجديدة قد أكسبته طابعا حزينا أضيف إلى مرارته السابقة فلاحظ على نفسه زيادة ميله للوحدة والصمت.. واعترف لنفسه بأن حياته تشهد فراغا موحشا لم تكن تشهده خلال ارتباطه بالقطة الأليفة ومع ذلك فقد ازداد إمعانا فى الهروب من كل محاولاتها لإعادته إلى العش المهجور.

وذات صباح ذهب إلى عمله فجلس إلى مكتبه فى الصباح الباكر يقرأ الصحف وصوت الراديو الخافت يتردد برفق فى المكان، فإذا به تشد انتباهه بعض أبيات من الشعر فى برنامج صباحى فيتوقف عن قراءة الصحيفة ويتمنى لو أعادها المذيع ليسجلها فى أوراقه ولم يتذكر من مطلعها سوى هذه الشطرة:

ـ هل كان ما بيننا حبا وعشناه؟

ولاحق بقلمه صوت المذيع وهو يقرأ ختامها فكتب وراءه:

ـ يا أيها الحب الذى مات

ـ لو يرجع اليوم الذى فات

ـ لو عاد يوم منك .. عشناه!

ثم وضع القلم وأمسك بالورقة وأعاد قراءة ما كتبه وتساءل: هل يتمنى حقا لو يرجع الحب الذى مات!

لم يستطع أن يجيب على السؤال إجابة حاسمة لكنه استرجع فى أسى لحظات السعادة الصافية قبل ظهور أول بقعة سوداء فى ثوب الحب الأبيض.. فإذا بجرس التليفون يرن.. بصوت القطة الأليفة يبادره! كل سنة وأنت طيب أيها «الغادر»!.

وقبل أن يتمالك نفسه ويسألها عن المناسبة التى استحق عليها هذه التمنيات الطيبة واصلت حديثها:

اليوم مضى عام كامل على مقاطعتك لنا.. فماذا «فعلت» حتى أستحق منك هذا الجحود؟.

فكاد يجيبها بما يثقل إحساسه بالأسى ويفسر لها عمق جرحه منها بأنه إنما كان يظن وقد شارف الخمسين من عمره أنها ستكون «الحب» الذى يغادر الحياة وهو يطوى صدره عليه.. فإذا بها تبدد الحلم الكبير بالعبث والاستجابة للطبيعة القططية، وإذا بها تلامس مياه شاطىء

الخيانة بقدميها مرتين وترجع نادمة ومعتذرة ثم تطالبه باعتبار نكوصها عن الخوض فى المياه العميقة دليلا أكيدا على عمق حبها له ناسية أنه ما كان لها أن تقترب من مياه الشاطىء من البداية، لو كانت تستحق حقا أن تكون بطلة هذا الحلم الموعود!.

كاد يقول لها كل ذلك..

وتهيأ لأن يقول لها الكثير والكثير لكنه تراجع فجأة متماديا فى الهروب وأجابها فى برود:

وأنت طيبة.. مع الشكر..

فجاءه صوتها مغتاظا:

إن شالله.. تموت!.

ثم سمع صرير التليفون ينعى له الحلم القديم، فوجد نفسه يزيح الصحيفة عن مكتبه بقنوط ويتأمل الورقة التى سجل عليها ما سمعه فى البرنامج الإذاعى ويجيب نفسه بصوت مسموع:

- نعم كان حبا.. وكان حلما.

لكنه كان أيضا خطأ كبيرا منذ البداية فمتى يتعلم الإنسان تجنب الأخطاء؟.. متى يتعلم الإنسان تجنب الأخطاء؟.



٨

سكرتيرة جديدة !!

جاءت إلى مكتبه بخطاب من صديق يرجوه فيه الاهتمام بأمرها.. ويذكّره فى سطور قليلة «بظروفها» التى سبق أن حدَّثه عنها. قرأ رسالة الصديق فى لحظات ثم رفع عينيه إليها فرأى «ظروفها» مرتسمة على وجهها الجميل الحزين.

وجَّه إليها الأسئلة التقليدية عن المؤهل الدراسى والخبرة السابقة.. ثم سكت للحظات قبل أن يسألها عن الأجر الذى تتوقعه مقابل عملها.. ففوجىء بها تجيبه بانكسار: أى أجر تراه.. أو تستطيع أن تدفعه! فأكدت له إجابتها صحَّة ما أكده له الصديق عن دوافعها الحقيقية للعمل!

إنها مثله ومثل الشخصين الآخرين اللذين يعملان معه، فى حاجة للعمل لأسباب نفسية أكثر منها مادية.. ولو خيِّروا جميعاً بين الخواء والفراغ وبين العمل بلا أجر لما ترددوا فى اختيار العمل!

فالثلاثة قد واجهوا محنة الفراغ وانعدام الدور بعد انتهاء الخدمة العسكرية ووجدوا أنفسهم فى مرحلة التقاعد وهم فى منتصف العمر.

وبعد تجربة مريرة مع الفراغ كادت تنتهى بتدمير حياته الزوجية قرر أن يحتمى ضد الفراغ بافتتاح هذا المكتب.. وبحث عن الشخصين الآخرين بين ضباط الصف الذين أحيلوا إلى التقاعد وبدأ تجربة العمل التجارى الصغير لأول مرة فى حياته.

أما «ذكريات» ما قبل افتتاحه فهو يحاول نسيان مراراتها بكل الطرق لكى تواصل سفينة حياته مع زوجته رحلتها للنهاية رعايةً لوحيدته «ريهام» التى تقترب من سن الشباب.

لم يعد له فى الحياة من مطمع إلا أن يصل بابنته هذه إلى شاطىء الأمان «ويراها» زوجة سعيدة ذات يوم.. ومهندسة ناجحة فى عملها.. أفلا يستحق ذلك منه التغاضى عن مرارة الخذلان!

لم تكن رحلة الحياة مع أمها هادئة ولا مريحة معظم سنواتها. وخلت الحياة غالباً من عطر الحب ولم يبق إلا نداء الواجب الأبوى تجاه ابنته، وحين أحيل إلى التقاعد منذ سنوات ازدادت المعاناة معها حتى هجر البيت وأقام فى شقة العزوبية القديمة التى مازال يحتفظ بها.. وضاعت الحقيقة بينه وبينها فهى تتهمه بأنه قد أصبح «معقداً» وشديد الحساسية وشخصا لا يحتمل بعد إحالته للتقاعد فى سن الخامسة والأربعين.. وهو يتهمها بأنها لم تحتو اضطرابه أمام حياة الفراغ وانعدام الدور لأول مرة فى رحلة العمر ولم تصبر عليه ولم تُعنه بحنانها على اجتياز ظروفه الصعبة، بل كانت عوناً لهذه الظروف عليه بعنادها معه وجفائها وصلابة رأيها واستنكارها الجارح لأن يجلس فى البيت مثل «النساء» فى حين تذهب هى كل صباح إلى عملها!

فهجر البيت إلى شقته القديمة ورفض العودة بإصرار إلى بيته.. وزاد من إصراره على الرفض أنها لم تسع لاستعادته وترضيته بكلمة حب واحدة، وإنما شنت عليه بدلا من ذلك حرباً عائلية شعواء تضافرت مع ظروفه السابقة فى ترسيب المرارة فى أعماقه. فشهدت شقته القديمة زيارات خطيرة لعمه وشقيقه الأكبر وخاله وخالها ...إلخ، وطُرحت المشكلة على بساط البحث حتى ملّ الكلام فيها.. ولم يستجب لإلحاح أحد فى العودة والتغاضى إلى أن فاجأته «ريهام» بالزيارة بتدبير مُحكم من أمها، وبكت على صدره وذكّرته بمسئوليته عنها وحاجتها إليه وبما تشعر به من حرج أمام الصديقات حين يسألن عنه، فانهارت حصونه أمامها.. ورجع إلى بيته طاوياً صدره على شجونه وأحزانه، ووجد حلاً للفراغ والمرارة فى تحويل شقته القديمة إلى مكتب تجارى صغير يشغل به اهتمامه وتحمل عثرات البداية راضياً حتى اكتسب خبرة العمل وبدأ يحقق نجاحاً لا بأس به. وبحث عن مساعديْن له بين ضباط الصف المحالين مثله للتقاعد فاهتدى إلى شخصين عملا معه من قبل لفترة طويلة.. ووجدهما أكثر حاجة للعمل منه إليه. وأصبح عمله هو حياته الجديدة وعزاءه عما يطوى صدره عليه من مرارة الخذلان تجاه زوجته.

واستقر العمل بعد عامين من الاضطراب فأصبح يفى

بأجور العاملين معه ويحقق ربحاً بسيطاً فاشتدت حاجته إلى سكرتيرة تساعده فيه، وخاض أكثر من تجربة مع السكرتيرات حديثات التخرج من مدرسة التجارة فما أن تجد إحداهن وظيفة حكومية أو وظيفة فى شركة كبرى بأجر أعلى حتى تترك العمل معه بلا رجعة. لذلك رحب فى أعماقه بهذه السيدة الشابة حين حدَّثه عنها صديقه وأمِل فى أن تستقر فى العمل معه إلى النهاية. إذ هل هناك دافع أقوى من دافع الرغبة فى الانشغال بالعمل عن الأحزان؟ إن طلب الرزق أو الطموح قد يدفعان الإنسان إلى الانتقال من عمل إلى آخر بلا ندم طلباً للأجر الأعلى، أما دافع «السلوى» فقد يستقر به فى العمل إذا ارتاح إليه ولو كان أجره منه أقل من غيره. فلتكن إقامتها بيننا إذن طويلة وليكن تشاركنا جميعاً فيه مهرباً لنا من الآلام!

تذكَّر وهو يحدثها عن متطلبات العمل ومواعيده ما رواه له الصديق الذى حدثه عنها من ظروفها فتعجب لما تفعله الحياة أحياناً ببعض التعساء. حين كانت طالبة بالسنة الثالثة بكليتها ارتبطت عاطفياً بطالب بالسنة النهائية وتشاربا الحب بإخلاص.. وحين تخرج الشاب فى كليته تقدم لخطبتها وبدآ يستعدان لتحقيق الأحلام. وبعد عامين تم عقد القران وإعداد عش الزوجية الصغير وتحديد موعد الزفاف.. وراحا يلتقيان كل يوم لشراء آخر متطلبات الجهاز

لكن الفتى شكا ذات يوم ألماً عارضاً فى جانبه الأيمن.. وتكرر الألم فى الأيام التالية فتوجها إلى الطبيب معاً وهما يتضاحكان ويفسران آلامه العارضة بخوفه الدفين من الزواج! ويفحصه الطبيب فيطلب منه التوجه فوراً للمستشفى لإجراء جراحة الزائدة الدودية التى تهدد بالانفجار.. ويتصلان بالأهل من عيادة الطبيب ويتوجهان للمستشفى على الفور ويدخل الشاب غرفة العمليات وهو يعدها ضاحكا ألا يغيب عنها طويلاً فى الداخل.. وتلتفت هى فتجد أسرتها وأسرته قد لحقتا بها واحضرتا ما سوف تحتاج إليه من ملابس ومال. والجراحة الصغيرة انتهت سريعاً لكن المريض لم يسترد وعيه بعدها.. وحلّت الكارثة مع تباشير المساء!

مات الشاب الصغير قبل أيام من موعد زفافه.. وارتدت «أرملته» السواد قبل أن ترتدى ثوب الزفاف. واشتدت المحنة عليها حتى شارفت على المرض العصبى.. وبمساعدة من أبويها استردت بعض نفسها واستجابت للعلاج ثم خرجت للعمل.. أرملة شابة فى الواحدة والعشرين من عمرها وتشاغلت بعملها عن الأحزان.

وبعد ٥ سنوات مريرة نجح زميل لها فى العمل فى تغيير نظرتها المتشائمة للحياة.. فقبلت الارتباط به وبدآ يستعدان للزواج.. واستجابت لمطلبه فى التفرغ لحياتها الجديدة

فتخلت عن عملها وتركزت كل آمالها فيمن نجح فى بعث الحياة فى القلب الحزين.

وارتدت ثوب الزفاف الأبيض لأول مرة فى حياتها ونَعِمت بالهدوء والأمان.. وبعد عام سخت عليها الأقدار فأنجبت طفلها الجميل لكن العواصف قد تهب أحياناً على غير انتظار فلقد دُعيت لحضور حفل زفاف إحدى قريباتها فى نادٍ بأحد أطراف المدينة النائية وتوجهت إليه مع زوجها الشاب وطفلها وجمالها يتألق تحت الأضواء. وانقضت السهرة السعيدة وخرج الزوجان فوقفت هى أمام باب النادى تحمل طفلها الصغير ونزل هو إلى نهر الطريق لتصيّد سيارة أجرة عابرة.. ثم طال به الانتظار فقرر أن يعبر الطريق إلى الناحية الأخرى حيث يكثر عبور السيارات.. فإذا بسيارة أتوبيس هوجاء تطيح به فتسمع الزوجة الشابة صرخة الفاجعة كالنعيق. واهتزت السيدة الشابة أمام المأساة هذه المرة بأكثر مما ارتّجت أمامها فى المرة السابقة.. وناحت أمها مولولة: أرملة مرتيْن قبل الثلاثين.. يالسوء بختك ياابنتى.

أما هى فلقد مرضت طويلاً.. واعتمدت على المهدئات والمنومات لفترة طويلة.. وتعذبت طويلاً حتى استطاعت التخلص منها فنجت منها بجهد جهيد لكن التشاؤم كان قد استقر فى أعماقها حتى النخاع.. وطال جمودها أمام المحنة

فسعى أبوها لدى معارفه فى إيجاد عمل يساعدها على الخروج منها إلى أن التقى بهذا الصديق الذى حدثه عنها.

تنبه إلى أنها مازالت جالسة أمام مكتبه تنظر إليه فى يأس منتظرة «قراره» بقبولها أو رفضها فتعجب لشكّها فى احتمال رفضه لها وقال لنفسه متأملاً: كيف لم تفهم فى غمرة أحزانها أنها بُغيتى التى أبحث عنها منذ زمن طويل؟ ثم سألها برقة:

ـ متى تستطعين بدء العمل؟

فأجابته بلا تردد:

ـ الآن إذا قبلتنى..

ثم بعد لحظة صمت:

ـ الحق أننى لا أريد أن أعود إلى البيت سريعاً.

فابتسم راضياً ثم نهض من وراء مكتبه وهو يقول لها:

ـ إذن تفضلى معى.

ثم قادها إلى الغرفة المجاورة وأشار لها إلى مكتبها الجديد وسلمها مفاتيحه.. وبعض الأوراق التى طلب منها نسخها، ثم رجع إلى مكتبه متفائلاً وهو يفكر:

ـ من يدرى ربما يكون الأوان قد حان لأن يتخلص «الجميع» من كل الأحزان!

٩

الحقيبة الصغيرة

دخل محطة القطار يحمل حقيبته فى يده فاتجه إلى الرصيف ودخل عربة الدرجة الثانية، وأخرج من حقيبته كتاباً وصحيفةً ثم استرخى فى مقعده ناشراً صحيفته بين يديه. رحلة قصيرة لا تستغرق أكثر من ساعتين لكن ما أبعد المسافة بين الواقع وبين الأحلام، وشتَّان بين حاله وهو يقوم بها الآن راجعاً من زيارته الشهرية لأمه العجوز، وبين حاله حين قام بها لأول مرة منذ ثمانى سنوات. كانت رحلته يومها حزينةً ومحبطةً لكل الآمال فضاق بكل شىء فيها من وجوه الركاب إلى صوت عجلات القطار التى تخيلها تنعى إليه برتابتها كل الأحلام. كان قد تخرج قبلها ببضعة شهور وتلقى أولى الطعنات فتجاهلته كليته ولم تعيّنه معيداً بها وضاعت وعود من وعدوه بالمساعدة عبثاً، فلم يجد عملاً بأحد مستشفيات القاهرة، ليبقى قريباً من فرص النجاح، وقريباً وهو الأهم من حلم السعادة، ثم توالت بعدها الطعنات ورفعت فتاة القلب التى سكنته طوال سنوات الدراسة يديها يائسةً من أمل اجتماع الشمل، وقالت له باكية:

ـ ضاعت كل الأحلام... ولم أعد أقوى على احتمال ما أتعرض له من ضغوط.

فى نفس فناء الكلية الذى نمت فيه بذرة الحب بينهما، نعت إليه انهيار الأحلام بعد مقاومة بطولية من جانبها.

قالت له:

- لا أمل لنا.. وأنت تعرف أبى أكثر منى.. إنه جبار ولا يأبه لحديث الحب.. وقد خيَّرنى بين قبول من يرشحه لى ويراه مناسباً، وبين أن يُطلّق أمى متهماً إياها بمساندتى فى جنونى ورغبتى فى الارتباط بك فماذا أفعل؟

وانهمرت دموعها الغزيرة حتى لفتت أنظار العابرين من الطلبة والأساتذة، فقال لها متألماً: لا لوم عليك فى شىء. وإنى أعفيك من عهدك معى.. وأتمنى لك السعادة من كل قلبى.

وفى جلسة المساء بالمقهى الذى يقضى به سهراته أصدقاء نفس الدفعة من كلية الطب، قال لأقربهم إلى قلبه: لا أستطيع أن أطالبها بما لا طاقة لها به ويكفيها أنها قد أخلصت لى الحب صادقة طوال خمس سنوات أما أنا فكيف أستطيع أن أطالبها بالصمود لضغط أبيها وتهديده أكثر مما فعلت.. وهو أستاذنا بالكلية وقد خَبرنا طويلاً عناده وقسوته!

وفى طريق العودة إلى بيته قال لصديقه الذى يحاول أن يخفف عنه حزنه واكتئابه:

- لست أدعى الشجاعة والاستهانة بما حدث.. ولو فعلت ذلك مع أحد فإنى لا أستطيعه أمامك. فالحق أنى مهزوم

فى أعماقى حتى الحضيض، وأسَرِّى عن نفسى أحياناً بمحاولة التماس العذر لمن هدموا أحلامى، حتى لوالدها الخطير الثرى ابن الأسرة العريقة الذى رفض بإصرار أن يسمح لى بالتقدم لخطبة ابنته وأبرز له موقفه منى بفقرى وبساطة أسرتى واستحالة أن يقبل بى وأنا خريج بائس الأمل فى وظيفة جامعية ولا أمل فى مستقبل لامع كمنافسى الآخر ابن الأسرة الكبيرة والموعود بكل فرص النجاح.. لكنى حزين عليها أكثر من حزنى على نفسى وكل دعائى لها هو ألا تشقى بحياتها مع هذا «الآخر» وأن تعوضها الحياة عما حرمتنى منه من هناء.

وشهدته جلسة الأصدقاء فى المقهى بعد ذلك كل مساء، حزيناً وعازفاً عن المشاركة فى المناقشات الثقافية التى كان يشارك فيها بحرارة من قبل. وقال له صديقه متأملاً حاله:

- احترس لصحتك فأنت تزداد نحولاً واكتئاباً كل يوم.

فلم يجبه إلا بالابتسامة الحزينة وواصل مشاركته للأصدقاء فى جلستهم اليومية بلا حماس.

ثم خابت آخر الآمال.. وتخلَّى عنه من وعدوه بالسعى فى تعيينه بأحد المستشفيات الجامعية بالقاهرة ليواصل دراساته العليا ويترقب فرص النجاح، وجاءه خطاب التعيين فى مستشفى حكومى صغير فى بلدة مغمورة على مسيرة

ساعتين بالقطار من القاهرة فهمّ برفض الوظيفة وتساءل ماذا يربطنى بهذه البلدة الخاملة لكى أدفن آمالى وطموحى بها؟

ثم تذكر واجبه تجاه أمه الأرملة العجوز التى كافحت معه كفاح الأبطال وتحملت جفاف الحياة معه بالمعاش الحكومى الضئيل حتى تخرج فى كليته، فاستسلم لمصيره وودع أمه دامعاً وركب القطار إلى هذه البلدة الخاملة كارها كل شىء فى الحياة.

وبدأ عمله كطبيب شاب فى البلدة الصغيرة مُضمراً السخط والضيق بكل شىء.. بمأواه فى سكن الأطباء.. وبزملاء المستشفى الذين طال عهدهم بالحياة بعيداً عن أضواء العاصمة ففقدوا الحماس لأشياء كثيرة .. بالمرضى البؤساء الذين تحولوا فى عينيه إلى رمز لهزيمة أحلامه على كل الجهات.

وفى نهاية كل شهر يركب القطار عائداً إلى القاهرة فيمضى بضعة أيام مع أمه.. ويقدم لها بعض ما يخفف عنها جفاء حياتها، ويلتقى بأصدقاء الزمن القديم بالمقهى ويتسقط - فى حذر - أخبار فتاة القلب الحزين.

وفى إحدى زياراته الشهرية للعاصمة.. أنهى إليه أقرب الأصدقاء خبر زفاف فتاته إلى غريمه الثرى وسفرهما معاً

فى رحلة شهر العسل إلى أوروبا.. فتجدد ألم الجرح الغائر وقال لصديقه: فلتَطِب لها الحياة حيث تكون.. فالحق أننى أزداد إشفاقاً عليها مع مرور الأيام وأعفيها نهائياً من كل لوم.

وفى «مهجره» الجديد عاش منطوياً على نفسه يقضى وقت فراغه بالمستشفى يقرأ ويسمع الموسيقى ويعزف عن مخالطة زملائه الأطباء نافراً من كل شىء.. وبعد شهور أخرى اكتشف فى أحد زملائه الأطباء ميولاً ثقافية ذكرته باهتمامات الزمن السعيد فمال إليه وبدأ يألف صحبته والحديث معه، وكان زميله يقيم فى نفس البلدة وله بها عيادة خاصة فسأله:

ـ لماذا تحكم على نفسك بالسجن داخل هذا المستشفى. ولماذا لا تتخذ لنفسك مسكناً فى البلدة يكون أيضاً عيادةً مسائية لك؟

وبعد أيام قاده إلى أحد تجار البلدة ليستأجر منه شقة صغيرة بالدور الأرضى من بيته وتساهل معه صاحب البيت الذى يقيم فى نفس المنزل فى شروط الإيجار ورحب به بألفة كأنما يعرفه من قبل، فوجد الطبيب الشاب قلبه يتفتح لأول مرة لأحد أبناء هذه البلدة المغمورة التى يعتبرها مقبرة الأحلام. وعاونه زميله الطبيب وصاحب البيت فى

تأثيث الشقة وإعداد غرفتها المطلة على الشارع لتكون عيادةً طبية بسيطة، وضَمناه لدى تاجر الأثاث فى تقسيط الثمن. واستقبل حياته فى مسكنه الجديد وهو أقل تشاؤماً وضيقاً بالحياة.

وانتظمت حياته بعد ذلك بين العمل فى المستشفى فى الصباح وبين مسكنه الصغير. وتعلم الطهو وإعداد الطعام سريعا فاعتاد أن يرجع فى الظهيرة فيتغدى وينام بعض الوقت، ثم يصحو من نومه ويصنع قهوته ويفتح باب الشقة على مصراعيه إيذاناً باستعداده لاستقبال المرضى، ويمضى فترة المساء فى غرفة الكشف يقرأ ويسمع الموسيقى إلى أن يزوره مريض.

واعتاد صاحب البيت أن يمرّ به فى المساء فيمضى معه بعض الوقت، قبل أن يصعد إلى مسكنه بالدور العلوى، فازدادت علاقته به توثقاً واستراح لروحه الودود.

وبواسطة صديقه طبيب المستشفى عرف الطريق - فى ليالى الصيف - إلى جلسة بعض الزملاء على رصيف محل للخرودات بشارع البلدة الرئيسى حيث يتجمع بعض الأطباء والمحامين وتجار المدينة كل ليلة يستروحون نسيم الليل ويشربون الشاى ويتحدثون فى أمور الحياة.

ووجد فى هذه الجلسة ترويحاً جديداً فاندمج فيها

وحافظ على موعدها بعد إغلاق العيادة، واكتشف فى أحاديث أفراد الشلة ما يستحق الاستماع إليه والمشاركة فيه، ووجد لديهم ترحيباً به بالرغم مما أبداه من عزوفٍ عن صحبتهم فى البداية.

وعن طريق أحد أفراد هذه الشلة من المحامين تعلم هواية صيد السمك فى الترعة القريبة واقتنى أدواتها واكتسب خبرتها، وصاحَب المحامى الصديق فى رحلات صباحية للصيد فى أيام الجمع. واستراح لمودته وأريحيته فقضى معه أيام الأجازات الرسمية فى صيد السمك.

وبعد قليل وجد نفسه يشارك فى كل المناسبات الاجتماعية لهؤلاء الأصدقاء الجدد فقلّت مساحات الفراغ والوحشة فى حياته، وشارك أيضاً فى «مؤامراتهم» المدّبرة لحث أفراد الشلة من أصحاب الأسر على دعوة الباقين إلى غداء جماعى فى المناسبات المختلفة.

وشيئاً فشيئاً وجد نفسه يألف الحياة والبشر فى هذه البلدة المغمورة ويعجب لنفسه لماذا أغلق قلبه دونها فى البداية، وواظب على رحلاته الشهرية لزيارة أمه والالتقاء بزملاء الزمن القديم فى المقهى الذى شهد حماس الشباب وأحلامه الوردية. وكرر دعوته لأمه للإقامة معه فى مسكنه الصغير بهذه البلدة الهادئة فاعتذرت من جديد برغبتها

فى ألا تفارق بيتها الذى عاشت فيه سنوات عمرها. وفى إحدى هذه الزيارات تناهت إليه - فى جلسة المقهى - أنباء عن تعاسة فتاة القلب القديم مع زوجها الذى فرضه عليها أبوها، وعن نزاعاته معها وهجرها له عدة مرات لاعتدائه عليها بالضرب الوحشى، وخفق قلبه بشدة وتجنب التعليق عما سمع لكيلا يجدد ذكرى قصته الحزينة فى أذهان الأصدقاء، ورجع إلى بلدته مشغول الخاطر بالأنباء الخطيرة وتخيل حبيبته الوديعة الجميلة وهى تتعرض للضرب الوحشى من ذلك الآخر فاقشعر جسده وخفق القلب خفقةً مؤلمة.

وواصل حياته الرتيبة فى البلدة الهادئة حتى تنغص صفوها فجأة برحيل أمه عن الحياة وهو غائب عنها فى عمله. وانهار باكياً أمام زملاء المستشفى حين تلقى النبأ ثم هرول باحثاً عن وسيلة مواصلات تعيده للقاهرة ليقوم بواجبه الأخير مع أمه، ففوجىء بمجىء أكثر من سيارة تحمل أفراد شلة محل الخردوات وصاحب البيت الطيب لترافقه فى سفره، وصاحبه الجميع فى رحلته للقاهرة وشهدوا معه المراسم الحزينة ووقفوا إلى جواره فى سرداق العزاء، ثم أصروا على اصطحابه معهم إلى بلدتهم آخر الليل لكى لا يبيت وحيداً فى المسكن الخالى.

وتأثر بمجاملات الأصدقاء والزملاء كثيراً.. فامتلأ قلبه

لهم بالعرفان وتجدد عجبه لنفسه كيف رفضهم فى البداية ولمّا يتح له فى الأصل أن يختبرهم؟

وفقد آخر الأسباب للعودة المنتظمة إلى القاهرة فطالت إقامته فى البلدة الهادئة ولم يعد يغادرها إلا للضرورة.. وتباعدت لقاءاته بأصدقاء الزمن القديم فى القاهرة فانقطعت عنه أخبار فتاة القلب.

ويوماً سأله صاحب البيت الطيب:

ـ لماذا لا تتزوج وأنت شاب ناجح وكريم الأخلاق؟

فابتسم لكلمة «ناجح» فى باطنه واستعاد وجه والد فتاته الصارم وهو يهدر فى وجه ابنته متعجباً كيف تجرؤ على أن «تُدخل» إلى عائلته العريقة شاباً بائساً لا أهل له ولا مال؟

واسترد نفسه من خواطره وقال للرجل الطيب: مازال الرزق شحيحاً.. ومازلت لا أقدر على تكاليف الزواج!

ولم يقتنع الرجل بأسبابه مؤكدا له أن أكثر من أسرة كريمة من أسر هذه البلدة ترحب بشاب مستقيم و«ناجح» مثله.. فتجددت الغصّة فى قلبه لتكرار «الكلمة» المثيرة للتأمل، وشكر الرجل كثيراً ووعده بالتفكير فى الأمر. ومضت الحياة فى طريقها المرسوم وحثّه زملاؤه بالمستشفى على التقدم لامتحان دبلوم الجراحة قبل أن يفوت الأوان، فرجعت رحلاته الدورية إلى القاهرة للتردد على الكلية

وأداء الامتحان.

وتعجب لنفسه كيف أصبح يفتقد مسكنه الصغير بالبلدة المغمورة وأصدقاءه وزملاءه وجيرانه فيها، ليتعجل إنهاء مهمته بالمدينة الصاخبة ليرجع إليهم؟

حتى الشتاء الذى كان يضيق به فى البداية لأنه يحجب الرفاق عن الجلسة الليلية ويطيل من ساعات وحدته بالمساء قد ألِفه أخيراً «واكتشف» له مسّرات جديدة تقصر من لياليه الطويلة، كتبادل الزيارات المنزلية مع صاحب البيت، والمحامى رفيق صيد السمك.. والطبيب المثقف الذى كان أول من اقترب منه، وكالسهر أمام شاشة التليفزيون قبل القراءة فى الفراش، ولم يكن قبل ذلك يطيق صبراً على الجلوس أمامه أكثر من بضع ساعة. ومن حين لآخر تخطر فتاة القلب فى البال فيرقٌ لذكرى أيامها الجميلة ويدعو لها بالسعادة حيث تكون.

وتساءل وهو راجع ذات يوم من رحلة قاهرية بالقطار إلى بلدته ترى أين ولمن قرأ تلك العبارة:

ـ ما كان حزناً ذات مرة قد أصبح الآن سلاماً!

وأجهد ذاكرته ليتذكر اسم قائلها فلم تنجده الذاكرة. وخمَّن أنه لابد قد قرأها فى المجلة الثقافية التى تأتيه بالبريد كل شهر فى «مهجره» والتى حافظ على اشتراكه

السنوى فيها تذكاراً لاهتمامات فترة الأحلام الجميلة وذكرى أصدقاء المقهى القاهرى ومناقشاتهم الحارة.

ثم نهض من إغفاءة القيلولة ذات يوم متكاسلاً فاغتسل وارتدى ملابسه ثم صنع قهوته وحملها إلى مكتبه بغرفة الكشف وفتح باب الشقة الصغير وأضاء اللمبة الكهربائية المعلّقة فوق اللافتة التى تحمل اسمه على نافذة الغرفة ورجع إلى مكتبه وراح يحتسى القهوة ببطء وهو يتشاغل بالقراءة فى كتاب قديم آملاً أن يزوره هذا المساء بعض المرضى حتى ولو عالجهم بغير أجر ليتسلّى بالحديث معهم. فلم تمض لحظات حتى سمع طرقات خافتة على باب مسكنه وتعجب أن يطرق أحد بابه ومرضاه يزورونه بغير استئذان مادام الباب مفتوحا، وصاح من غرفة مكتبه: ادخل، فلم يدخل أحد وتواصلت الطرقات الخافتة، فازداد عجبه وغادر مكتبه ليرى ذلك الطارق الذى يأبى الدخول فإذا به يجد نفسه أمامها! هى بعينها وبوجهها الوديع الجميل ونظرتها الخجول المترددة.. فتاة القلب الحزين تقف عند الباب وتنظر إليه فى حياء وابتسام وفى يدها حقيبة صغيرة!

وتولّته دهشة طاغية ودعاها مضطرباً ومرتبكاً للدخول، وتنبه للحقيبة الصغيرة التى تحملها فتقدم منها وحملها عنها ودخل وراءها غرفة المكتب وهو معقود اللسان

من الدهشة والمفاجأة.

وجلس أمامها ينظر إليها بحنان جارف وهى تجلس أمامه حانية الرأس لا تقوى على مواجهة نظراته.. وترقب أن تبدأ الحديث، فروت له فى كلمات متقطعة أنها طُلِّقت من زوجها الذى فرضه عليها أبوها منذ عامين وأنها ترقبت أن يسعى للاتصال بها فخابت توقعاتها وتمسكت بالأمل فى أن تلتقى بأحد زملاء الدفعة القدامى من أصدقائه لتتسقط منه أخباره إلى أن التقت بأحدهم وعرفت منه عنوانه، وفكرت مراراً فى الاتصال به إلى أن تسارعت الأحداث حولها وأجبرتها على الإقدام على هذه الخطوة الجريئة.. فلقد تجرعت كؤوس الشقاء مترعةً فى زيجتها التى فرضها عليها أبوها وتخلصت منها بالعناء الشديد وبعد نزاعات قضائية مهينة، ورجعت كسيرة الخاطر إلى بيت أبيها فلم تمض شهور حتى وجدته يعرض عليها زوجاً جديداً تتوافر فيه المواصفات اللائقة من وجهة نظره من ناحية الأسرة والثراء والمركز المرموق وإن كان مطلقاً وله أولاد، وأجبرها على استقباله فى البيت فشعرت بالاختناق لمجرد الحديث معه، وأعلنت رفضها القاطع لأبيها فهاج وماج وحاول أن يكرر تهديداته المؤسفة لها، فتوسلت إليه أن يدعها تجرب أن تعيش حياتها بإرادتها هذه المرة بعد أن استسلمت لإرادته فى المرة السابقة وتجرعت التعاسة

بغير جريرة فواصل ضغوطه القاسية عليها ووجدت نفسها تقترب من نفس الهاوية مرة أخرى فقررت أن تأخذ زمام أمرها بيدها لأول مرة وتبحث عن سعادتها بنفسها، وقبل أن تتخذ أى قرار بشأن حياتها قررت أن تجىء إليه وتسأله السؤال المصيرى:

- هل مازلت تريدنى؟

ووجد نفسه يهتف منفعلاً:

- بالطبع أريدك ولم أرد سواك.. لكن هل تقبلين أنت بى ومازالت ظروفى على نفس حالها؟

وغلبت مشاعره فطفرت من عينيه دمعة ساخنة وسمعها تجيبه بإصرار:

- إننى مستعدة لأن نبدأ حياتنا الزوجية على الفور فى هذه الشقة الصغيرة وهذه البلدة الهادئة الجميلة.. فهل تقبل أنت بى؟

ولم يدر بماذا يجيب وسألها كأنما يعفى ضميره من آخر مسئولية تؤرقه:

- وتهديدات أبيك القديمة.. ألا تخشينها؟

فأجابته:

- إنه فى النهاية أبى وقد يقاطعنى شهورا أو بضع سنين

لكنه لن يؤذينى.. ولن يعاقب أمى على جرم لم ترتكبه.. وأنا فى النهاية سيدة فى الثامنة والعشرين من عمرى ومن حقى أن أزوج نفسى لمن أحببت وأستطيع أن أنتقل للعمل فى مستشفى هذه البلدة ونبنى حياتنا معا خطوة خطوة.

وتولّته فرحة طاغية حين سمع كلماتها الأخيرة وهرول إلى الباب المفتوح وصاح فى انفعال شديد منادياً صاحب البيت:

- ياحاج سيد.. ياحاج سيد!

ونزل الرجل درجات السلم منزعجاً.. فقاده من ذراعه إلى غرفة الكشف وروى له القصة فى كلمات خاطفة فاستوعب الرجل الموقف سريعاً ورحب بالسيدة الجميلة، ثم فاجأه الطبيب الشاب بقوله له:

- فات موعد قطار العودة للقاهرة.. فهل تستضيفا زميلتى الطبيبة هذه بين أسرتك للصباح حتى ترجع إلى القاهرة خوفا من أن تقلق عليها أسرتها - ثم نتزوج بعد أيام؟

فاتسعت ابتسامة الرجل وهو يتأمل السيدة الجميلة والحقيبة الصغيرة التى ترقد إلى جوارها ثم قال لصديقه الطبيب الشاب بذكاء فطرى:

- أما عن استضافتها فعلى الرّحب والسعة فى بيتى وبين أسرتى.. لكن فطنتك يا دكتور؟ «عروسك» قد جاءت إليك

بحقيبة ملابسها مستجدة بك مما ينتظرها هناك وتريد أن تعيدها أنت غدا للقاهرة؟

ووقف الطبيب حائراً.. ونظر إلى فتاته القديمة متسائلاً كأنما يريد أن يتأكد من صدق ما فهمه صاحب البيت بحكمته الفطرية وغاب عنه تقديره فابتسمت وأحنت رأسها فى حياء مؤمنة على ما فهمه الرجل الطيب، فضحك صاحب البيت فى ابتهاج وربت على كتف صديقه الطبيب داعياً إياه وعروسه للصعود معه إلى منزله لتتصل منه فتاته بأسرتها وتبلغها بمكانها وقرارها ولتستريح السيدة الجميلة من عناء السفر وتغتسل وتبدّل ملابسها ريثما يدعو صاحب البيت الأصدقاء والأحباء لشهود قران صديقهم الطبيب الشاب فى بيته.

وتقدم الرجل الموكب على درَج السلم صاعداً إلى مسكنه، ومن خلفه الطبيب الشاب يحمل الحقيبة الصغيرة ولا يكاد يعى ما حوله من الانفعال.. وإلى جواره فتاة القلب التى استردت فى لحظات نضارتها القديمة تختلس النظر إليه وتراقب انفعالاته بإشفاق. ومن حين لآخر يلتفت إليه صاحب البيت ويكرر عليه سؤاله الاستنكارى متعجبا:

جاءتك بحقيبتها بعد كل هذه السنين.. ثم تريد أن ترجعها إلى القاهرة؟!

فيضحك الحبيبان القديمان فى ابتهاج وارتباك
ويشاركهما الرجل الطيب ضحكاتهما مستمتعاً ومتهللاً!

٩

الغدر.. ياحبيبى!!

هل يمكن حقا أن تتغير المشاعر من النقيض إلى النقيض هكذا كل يوم وإلى ما لا نهاية؟.. وهل قُدّر علىّ أن أحيا أيامى كلها فريسة لهذه التقلبات الحادة.. أنعم بالحب قليلاً وأشقى بالجفاء والقسوة معظم الأوقات؟.. إن زملائى يقولون لى إنها لا تحبنى ولا ترانى فتى أحلامها وأنها قبلت بخطبتى لها طلباً للاستقرار أو الزواج كأى فتاة عادية لم تشأ أن تضيع فرصة لها للارتباط بشاب مناسب. لكن حتى لو كان الأمر كذلك فلماذا تمتحننى بالعذاب كل يوم؟ ولماذا لم تقل لى بعد فترة من الخطبة إنها فشلت فى أن تستجيب لمشاعرى أو تتقبلنى نفسياً ولا تريد لنفسها أن تتزوج شاباً لا تحبه ولهذا فهى تريد أن يبحث كل منا عن سعادته فى اتجاه آخر؟ ولماذا تفضل أن تظل محتفظة بالخيط الرفيع الذى يربطنى بها حتى اللحظة الأخيرة وكلما ضقت بقسوتها وغرورها جذبتنى إليها وأنستنى بعض معاناتى معها؟

إن زملائى وزميلاتى فى الهيئة التى أعمل بها لا يحبونها ورغم أنه تجمع مكاتبنا المتجاورة صالة واسعة فعلاقات معظمهم بها متوترة.. وقد قابلوا خطبتى لها بفتور، وقال لى أكثر من واحد منهم إنه يُشفق علىّ من غرورها وتناقضاتها فلم أسمع له. أما أقربهم إلى قلبى وهى زميلتى سميحة فلم تكن تكرهها وإن كانت تعيب عليها بعض تصرفاتها.. وقد

قابلت خطبتى لها بمزيج من الابتهاج لى والإشفاق علىّ. إنها سيدة فاضلة فى الرابعة والثلاثين من عمرها وزوجة وأم سعيدة فى حياتها الخاصة، سبقتنى فى التخرج فى نفس الكلية بأربعة أعوام وساعدتنى كثيراً فى عملى حين التحقت به وأعطتنى خبرتها عن العمل والزملاء الذين نتعامل معهم، فارتحت إليها كثيرا واعتبرتها أختا لى وأمينة لأسرارى. وحين لاحظت وَلَهى بفتاة القلب «وفاء» نبهتنى إلى ضرورة الاعتدال فى مشاعرى تجاه هذه الفتاة التى تجيد التحكم فى مشاعرها ولا تستسلم لعاطفتها أبداً.. وسمعت نصيحتها شاكراً لكنى لم أستطع الالتزام بها، فلقد كان حبى لوفاء طوفاناً جارفاً جرف فى طريقه كل مقاومة، واكتفيت باستشارتها من حين إلى آخر فى تفسير بعض تصرفات فتاة القلب التى بدَت لى غامضة. فلقد فاتحتها بحبى ورغبتى فى خطبتها ورحبت بى وشجعتنى على التقدم لأبيها وقالت لى إنها تحبنى أيضا. لكن تصرفاتها ظلت متناقضة وغريبة لفترة طويلة. تغار من حديثى إلى زميلاتى وخاصة إلى السيدة سميحة، وتتهانى عن الحديث مع أى زميلة سواها وتثور علىَّ فى نفس الوقت إذا لفتُ نظرها بإشفاق إلى صلتها الحميمة بأكثر من زميل لنا فى الإدارات الأخرى، وخاصة من هم أكبر سناً ومنصباً وتتهمنى بالتخلف والجمود وتصرخ فىَّ.. كيف تعيش مع صاحب عقلية كهذه العقلية

الرجعية..؟ فأتراجع مرغماً وأسحب اعتراضى. وهى أيضاً تطلب منى الكثير.. وتطالبنى بشقة أفضل من الشقة التى أعددتها للزواج مع أنها شقة مناسبة للغاية، وبشبكة فوق قدرتى واحتمالى.. وبإقامة حفل الزفاف فى فندق كبير لأنها ليست أقل من أى فتاة فى أسرتها.. وفى نفس الوقت تطالبنى بتحمل كل تكاليف تأثيث الشقة وحدى ودون أية مساهمة منها أو من أسرتها الكبيرة فى الجهاز، سوى بملابسها الشخصية، وتصرخ مؤكدة لى أن هذا هو العرف السائد فى أسرتها لإثبات مدى «اعتزاز» العريس بعروسه وليس عن عجز أو نقص إمكانيات أسرتها!

وأستشير زميلتى المخلصة فتنصحنى بالرفض وتفسر لى طلباتها هذه بأنها تشعر بعمق حبى لها ورغبتى فيها وتريد أن تفرض علىَّ كل رغباتها.. وأحاول الاستجابة لصوت الحكمة فى نصيحة زميلتى فأجدنى عاجزاً بعد قليل عن الصمود..!

وتمضى الأيام فألاحظ أن فترات صفائنا قليلة وفترات مشاحناتنا طويلة.. وأن مزاجها يزداد عصبية وحدّة يوماً بعد يوم وألاحظ تهجمها علىّ فى كل مناسبة دون مراعاة لشعورى أمام أسرتها أو أمام زملائى فأيأس منها وأرتد مبتعداً فلا تدعنى لنفسى طويلاً وإنما تطالعنى بعد أيام،

أتجرع خلالها العذاب، مُترعة بالوجه الباسم القديم. فأنسى ما تقدم وأواصل أيامى متشابهة أتنقل من السعادة إلى العذاب، وتواصل هى التذبذب بين الرضا والسخط إلى ما لا نهاية.. وتكثر أعذارها لرفض زيارتى لها فى بيتها أو للخروج معى بعد مواعيد العمل بحجة «الصداع» الدائم الذى يحول بينى وبين أن أسعد. وليت الأمر اقتصر عند هذا الحد.. فلقد تجاوزت الحدود مراراً فى تعاملها معى أمام زملائى.. وأصبحت نظرتها الغاضبة الساخطة تحرجنى بينهم حين تلومنى بعنف لا يحتمله الموقف على أى كلمة أو عبارة لاتوافق هواها.. والزملاء مشفقون.. وأنا مُحرج. حتى نهرتها زميلتى الطيبة سميحة أكثر من مرة.. وقاطعتها تعاطفاً معى.

وفكرت فى كلماتها المؤلمة طويلاً وقررت أكثر من مرة أن أفك عن نفسى أسر حبها.. وبتُّ أكثر من ليلة وأنا عاقد العزم على أن أذهب إلى العمل فى الصباح لأقول لها أمام الزملاء:

يا آنستى لقد كان «ذنبى» الذى عاقبتنى به طويلاً أمام زملائى هو أنى أحبك لكنى الآن قد تخلصت من هذا «الذنب» وكفَّرت عنه.. ولم أعد أحبك ولا أريد أن أتزوجك فاحتفظى بشبكتك هدية منى أو ردِّيها إذا أردت.. لكنى أخلع من يدى الآن دبلتك ومعها أخلعك من حياتى نهائياً.

اعتزمت ذلك مراراً وقررت أن أنفذه بهذه الطريقة العلنية وتخيلت نظرات الارتياح والشماته التى ستعلو وجوه معظم الزملاء والزميلات الذين يكرهون فيها غرورها وتكبرها وتجبرها علىَّ.. وتخيلت ابتسامات الرضا والتشجيع التى سيخصوننى بها، فذهبت إلى العمل أكثر من مرة مصمماً على أن أنفذ ما اعتزمته فما أن اقترب من مكتبها متجهماً حتى تحس بغريزتها بما أنتويه ولا تدع لى فرصة لتنفيذه.. وإنما تبادرنى بابتسامة ساحرة وتقول لى بصوت رقيق شاك:

- أهكذا تتركنى بلا كلمة واحدة منذ يومين.. وتدعنى لقلقى وحيرتى طوال هذه الفترة؟!

ثم تلتفت إلى زملائى وزميلاتى «وتشكو» لهم من «قسوتى» عليها حتى جافاها النوم طوال اليومين الماضيين..! وأسترد ثقتى فى نفسى.. وفى «حبها» لى.. وأعيش أسعد لحظات عمرى وتخصنى الساحرة باهتمامها ورعايتها يوما أوبعض يوم حتى تكاد تشعرنى بأننى ملك وبأنها جارية فى بلاطى ثم تعود بعد قليل إلى سيرتها الأولى وتتكرر القصة بنفس التفاصيل. وأشكو لزميلتى الطيبة فتقول لى إنها تلعب بخيوطى كيف تشاء وكلما شعرت بقرب تحررى من رقّها جذبت خيوطى إليها وقربتنى منها فأنسى لها كل إساءة! ولم يكن ذلك خافياً علىّ تماما فلقد كنت أعرفه لكننى عاجز عن

التحرر من أسرها.. ومن المؤلم حقاً أن يعرف الإنسان «داءه» ولا يستطيع أن يتخلص منه.

وهكذا ظللت أخدع نفسى بحبها إلى أن جئت هذا الصباح إلى العمل.. ودخلت إلى الصالة الكبيرة التى تجمع مكاتبنا وألقيت تحية الصباح على زملائى واتجهت بنظرى كالعادة إلى مكتبها فوجدته خالياً.. ووجدت بعض الزملاء ينظرون إلىَّ نظرات غريبة كأنما يعرفون شيئاً ما ويخفونه عنى. فسألتهم عنها فقالوا إنها جاءت للعمل لدقائق وانصرفت. اتصلت ببيتها فجاءنى صوت أمها متحفظاً يقول لى إنها ليست فى البيت ولا تعرف متى تعود. بدأت عملى.. فلاحظت بعد قليل أن جواً من الوجوم يسود الإدارة.. ورفعت نظرى من فوق أوراقى فرأيت أكثر من زميل ينظر إلىَّ فما أن تلتقى عيوننا حتى يتجاهلنى..! وتأكدت من أن شيئاً ما قد حدث واتجهت إلى مكتب زميلتى المقربة وسألتها عما لاحظته.. فنظرت إلىَّ طويلاً ثم قالت لى والزملاء يتشاغلون عنا بأوراقهم:

فلانة تنهى إجراءات سفرها إلى الخارج وقد قدمت هذا الصباح طلباً للحصول على إجازة بدون مرتب.

السفر للخارج؟ وإجازة بدون مرتب! خطيبتى ستسافر للخارج بغير علمى؟ لماذا.. كيف؟

وعرفت القصة التى تحاشى زملائى أن يواجهونى بها حين جئت للعمل هذا الصباح الكئيب.. لقد ركلتنى فتاتى الغادرة التى تلاعبت بى شهوراً طويلة من حياتها فى لحظة واحدة.. وبلا أى إحساس بالذنب تجاهى أو الندم! لقد ارتبطت بزميل فى إدارة أخرى من إدارات الهيئة أعير للعمل فى إحدى دول غرب أفريقيا وهما يستعدان الآن للزواج والسفر خلال أيام.. أما خطبتى بها فما أهون أمرها، وأما قلبى الذبيح فما أهون شأنه.. فشبكتى والدبلتان سلمتهما الغادرة لزميلتى الطيبة سميحة وطلبت منها فى كلمات متعجلة ألا أغضب منها لأنها لم تكن لى من البداية.. ولم نكن لنسعد معاً لأننا شخصيتان مختلفتان.. وإمكاناتى محدودة وهى طموحة.. ولن تسعد بحياة جافة بسيطة! ثم غادرت المكان بلا وداع.. وسيعقد القران غداً.. وسيتم السفر هذا الأسبوع.. ولا عزاء للمخدوعين والتعساء!

ظللت أنظر مشدوها إلى زميلتى سميحة وهى تروى لى القصة العجيبة بعبارات مخففة.. وتحاول تهوين الأمر كله علىَّ.. وتقول لى إن علىَّ أن أشكر الله كثيراً أن أنقذنى من الحياة مع إنسانة لاتحبنى ولا تقدرنى ولم تكن مخلصة لى من البداية وإنما اتخذت من خطبتى وحبّى لها وسيلة خسيسة لإشعار «الآخر» بأنه سيفقدها للأبد لكى يتحرك

ويتقدم للزواج منها وسمعتُ زميلتى تقول لى إننى أستحق فتاة أجمل وأفضل منها وإنها ستقدمنى إلى جارة لها آية فى الجمال والأخلاق والمنبت الطيب، وستكون أفضل عزاء لى عما تعرضت له من غدر وخيانة وتلاعب بمشاعرى الصادقة من هذه الغـــادرة.. وستثبت لى الأيام أننى قد نجوت من مصيدة كريهة، فخيّل إلى فجأة أن وجه سميحة ينتفخ وهى تحدثنى كالبالون ثم يعود إلى طبيعته بعد فترة ثم يرجع للانتفاخ من جديد! ولاحظت بدهشة واستغراب أن شفتيها قد تضخمتا كثيراً كثيراً وهى تتحدث إلىَّ حتى خشيت عليهما من الانفجار وكدت أحذرها من ذلك.. ثم شاهدت فجأة «برصاً» صغيراً يسير ببطء وحذر على الحائط خلف رأسها مباشرة.. كأنما يسمع ما تقوله لى.

وهممت بالتحرك لكى أقتله وأبعده عن زميلتى الطيبة.. لكنى عجزت عن الحركة فجأة ووجدت شيئاً كالضباب الرمادى الفاتح يملأ الجو أمامى ووجه سميحة يغيب شيئاً فشيئاً وراءه، فرفعت ذراعى لأنفض هذا الغمام لكيلا يحجب عنى وجه زميلتى الطيبة فسمعتُ صوتا آتيا من بعيد يقول بفزع: إسنديه يا سميحة قبل أن يقع.

ثم أفقت بعد ذلك ولم أر شيئاً!

(طبق الأصل: من يوميات شاب مطعون فى قلبه).

١١

التساؤل الصامت!!

هل كان يـملك أن يفعـل شيئاً آخر غير ما فعل؟ هل كان يستطيع أن يتكلم.. أو يشـرح.. أو يدافع؟ ولو كان قد فعل أكان يستريح لما سيترتب على فعله وقوله من إساءة بالغة لأقرب الناس إليه؟

لقد أدرك منذ البداية أن المصيبة مصيبته وحده وأنه لا مفر من أن يطوى عليها صدره ويضيف إلى ضيقه بها ألم العجز عن الشكوى وبث الأحزان.. بل وألم مواجهة نظرات الآخرين التى تتهمه بالضعف.. والعجز وتحجر المشاعر. وعلم الله ما ضعف ولا قست مشاعره لكن ماذا يفعل وقد اختارت له الأقدار هذه النهاية الأليمة لأحلامه؟ وماذا يستطيع أن يقول أو يفعل، وهو إن «فعل» تنكر لأقرب الناس إليه.. وإن «قال» أساء إليه؟

لقد نشأ فى أسرة بسيطة تحكمها أم قوية مسيطرة وأب موظف صغير مسالم.. ومنذ صغره عانى من الإحساس بثانوية الدور.. ونقص الاعتبار لدى أبويه، فالشقيق الأكبر الذى يكبره بعامين هو نجم الأسرة وموضع فخرها، وهو الأكثر وسامة والأخف روحاً والأكثر جرأة، والذى تنعقد دائماً المقارنات بينه وبينه فيميل الميزان لصالحه على الدوام.

ومنذ صغره وهو يعانى من ضعف البصر الذى اضطره لارتداء النظارة الطبية وهو طفل صغير، فكانت عثرات

ضعيف البصر حين يفتقد نظارته أو ينساها فى مكان ما دائما موضع تندر الأبوين وسخرية الشقيق الأكبر وفكاهة الأسرة فى جلسات الصفاء، ولم يدر أحد كم كانت تؤلمه هذه السخرية وتقض مضجعه؟

وفى المدرسة تحمَّل سخريات الصغار من ضعف بصره وخجله وتلعثمه وضعف شخصيته بصبر غريب، وحاول أن يعوض عجزه عن مجاراتهم فى ألعابهم بأداء واجبه المدرسى على خير وجه والتفوق فيه.. فكانت درجاته دائما أعلى من درجات شقيقه لكنه لم ينل رغم ذلك ما كان يحلم به من مكانة داخل أسرته، فقد ظل الشقيق الأكبر نجم الأسرة بلا منازع رغم ضعف تحصيله فى المدرسة ورغم تعثره الدراسى أكثر من مرة خلال رحلة التعليم حتى انتهى به الأمر إلى التوقف عن الدراسة وهو فى سن الشباب، وخروجه إلى دنيا العمل فى مشروع صغير قدمت له أمه رأس ماله من مصوغاتها، فى حين واصل هو دراسته بنجاح حتى التحق بكلية مرموقة وتخرج فيها، ولم يتغير سلم الأهمية فى ميزان أسرته فالأكبر مازال فى المقدمة رغم فشله حتى فى مشروعه التجارى الصغير، وأمه تقدم رغباته واحتياجاته على كل اعتبارات باقى الأخوة، والأب كذلك، وكلاهما ينتظران منه هو بالذات أن يضحى دائما لأخيه بكل شىء، وحين التحق بأول عمل يمارسه فى حياته، وتسلم أول مرتب

له وفوجىء بأمه تطالبه بمعظم مرتبه لأن نجم الأسرة قد ارتبط بفتاة من جيرانه وينوى الزواج منها قريباً، قدم لها مرتبه كاملاً ما عدا ما يحتاجه لانتقالاته وهو يكتم تساؤله الصامت: وماذا عنى.. وعن مستقبلى يا أمى.. وعن أحلامى فى الزواج والسعادة مثل شقيقى؟

وتزوج الأخ الأكبر، وبيعت قطعة الأرض الصغيرة التى يملكها الأب لشراء شقة مناسبة له فى البيت المجاور، ولم يتوقف الأبوان لحظة أمام نصيبه ونصيب شقيقه الأصغر فى ثمن هذه الأرض لأن كل شىء يهون فى سبيل إسعاد الشقيق الأكبر، ولأن التضحية بالحق شىء منتظر منهما لنجم الأسرة.

وفى أوقات الضيق كان يقول لنفسه: لدىَّ ألف سبب وسبب لأن أضيق بهذا الأخ الأنانى الذى يعتبر كل ما يناله منا حقاً له لا يستحق منه الشكر، وألف ألف سبب لأن أضيق بأمى وأبى اللذين يميزانه عنا منذ الصغر حتى أرضعاه الغرور والكبر على أخويه، ومع ذلك لست أستطيع أن أكرهه أو أكرههما ولن أفعل، فلابد أن السماء تدخر لى ما سوف يشفى نفسى من إحساسى الأليم بالظلم فى أسرتى.

ولم يطل انتظاره.. فلقد جاءته فرصة ممتازة للعمل فى الخارج بمرتب مغر، وسافر إلى مقر عمله، وتحمل صعوبات

البداية فى مجتمع غريب عليه، وبإخلاصه المعهود لكل ما يؤديه من عمل أقبل على عمله الجديد بحماس ونشاط، وثبت أقدامه فيه بإخلاص واجتهاد.. ولم يكد يكمل عدة شهور فى عمله الجديد حتى جاءه صوت أمه فى التليفون يطلب منه إرسال مبلغ كبير لإنقاذ تجارة الشقيق الأكبر من الإفلاس وسداد ديون تهدده بالسجن، فكتم تساؤله المرير مرة أخرى: وماذا عنى وعن مستقبلى يا أمى؟ وأرسل المبلغ المطلوب فاستهلك كل مدخراته خلال الفترة الماضية، وواصل عمله وحياته الجديدة صابراً، وفى نهاية عامه الأول فيه جاءه صوت أمه مرة أخرى يطالبه بإرسال كل ما يستطيع من نقود لمساعدة شقيقه الأصغر فى زواجه، وراجع حساباته بعد أن أرسل المبلغ المطلوب فوجد حصيلة عامه الأول فى الغربة صفراً كبيرا فكأنما عاش عاماً طويلاً من العمل المضنى مقابل طعامه وشرابه وسكناه فى شقة مشتركة مع اثنين من الغرباء مثله ولم يتساءل هذه المرة.. وماذا عنى يا أمى وعن مستقبلى وحقى فى الزواج والسعادة مثلهما؟ فلقد أصبح أمرا مألوفا ومتوقعاً منه فى أسرته أن تتجاهل دائماً اعتباراته الشخصية إرضاء لرغبات أمه التى تتركز دائما حول الأكبر وبقدر أقل حول الشقيق الأصغر.. وتتجاهل دائما الحلقة الوسطى من أبنائها كأنما قد كتب عليه وحده أن يحترق دائما من أجل الآخرين.

وبعد عامين طويلين من الغربة القاسية عاد فى أول إجازة له محملاً بالهدايا للجميع.. وبعد فرحة اللقاء واجتماع الشمل مرة أخرى فاتح أمه برغبته فى الزواج بعد أن بلغ السابعة والعشرين من عمره.. وتوقع أن تتفجر فرحتها فى وجهه فترضى نفسه وتعوضه عن شقاء الغربة، فإذا بها تتردد.. وتتلعثم.. وتحدثه عن ابن عمه الذى تزوج وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره.. وابن خاله الذى فضل أن ينتهز سنوات العمل فى الخارج لجمع أكبر قدر ممكن من المدخرات، ثم تزوج بعد عودته النهائية من عمله وهو فى الرابعة والثلاثين من العمر.. إلخ.

وأحس بوخز الألم فى صدره.. وأدرك المطلوب منه بغير كلام صريح.. وهو أن يظل عزباً فى الغربة لأطول فترة ممكنة ليكون قادراً دائماً على تلبية مطالبها ومطالب أخويه، وحتى لا يتزوج فتستهلك زيجته قدراً كبيراً من مدخراته، ثم يصطحب زوجته معه إلى مقر عمله فيقيم فى مسكن مستقل يستهلك جانباً آخر من دخله وتكون له حياة عائلية خاصة لها مطالبها المادية و«مخاطرها» الأكيدة وأهمها أن تنبهه لذاتيته وحقوقه الشخصية فى مواجهة هذا الذوبان اللانهائى فى عالم الأسرة الكبيرة.

أنصت إلى حديثها وهو يستجلى مراميه الحقيقية.. ويتألم لها صامتاً.. وفجأة وجد نفسه يتساءل صامتاً: أليس

من المحتمل ألا أكون لقيطاً ربته حين تأخر بها الإنجاب؟ وتراقص ظل ابتسامة شاحبة على شفتيه وهو يراجع نفسه صامتاً: وكيف يكون ذلك وأنا لست الابن الأكبر.. بل الأوسط؟

وسلم باستحالة الفكرة فنحاها جانباً متعجباً من غربتها ولم يجد ما يقوله لأمه سوى أنه سيفكر فيما قالته، وقضى باقى إجازته مكتئباً وأحس بالارتياح حين انتهت الإجازة وعاد إلى مقر عمله، وفى مهجره صارح زميلاً جمعت بينهما ظروف الغربة بهمومه فسأله: وماذا تنتظر لكى تكون لك أسرتك الصغيرة.. ولست قاصراً ولا عاجزاً من الناحية المادية عن الزواج؟ وتساءل معه متعجباً: حقاً ماذا أنتظر؟ موافقة أمى ورضاها؟ وكيف السبيل إليها ورضاها فى ألا أتزوج وأظل بقرة الأسرة الحلوب إلى النهاية! ولم تكن تربطه علاقة بفتاة محددة ويرغب فى الارتباط بها وقد انقضت سنوات الدراسة الجامعية دون أن يقترب من فتاة - بسبب خجله وانعدام ثقته فى نفسه - أو تقترب منه فتاة.

وراجع فى مخيلته فتيات الأسرة والجيران ليختار واحدة يستطيع أن يتقدم لخطبتها.. وقفزت إلى مخيلته صورة فتاة من الأقارب البعيدين جاءت مع أمها لتهنئته بالعودة خلال إجازته فى مصر.. وتركزت رغبته فيها، وبعث لأبيه رسالة مطولة يشرح له فيها ظروفه ويرجوه أن يتقدم لأبيها نيابة

عنه وجاءته من الأب رسالة أطول بخط أبيه.. وإملاء أمه فيها مساوىء هذه الفتاة وأسرتها ويطلب منه أن يصرف نظره عنها.

وراجع ذاكرته مرة أخرى حتى استقرت على فتاة أخرى من أقارب أمه وكتب إلى أبيه برغبته.. وجاءه الرد بقائمة طويلة من المثالب والعيوب التى لا يقبل بها رجل ذو كرامة وتكررت القصة مع ثالثة حتى كاد يصدق أن جميع فتيات الأهل والأقارب والجيران لا يصلحن للزواج من درة غالية مثله لولا أنه يعرف «الدوافع» ويتألم لها، وحين استقرت مخيلته على فتاة رابعة، لم يكتب لأبيه هذه المرة وإنما كتب لأبيها مباشرة، وتلقى منه الرد بالترحاب.

وفى أقرب فرصة عاد لمصر وواجه أمه وأباه بالأمر الواقع وتحمل لوم أمه على هذا «التهور» الذى لا يليق بشاب عاقل مثله، وتقدم لفتاته.. وقدم لها الشبكة.. وأحس بفرحة لم يحس بمثلها من قبل رغم ما بدا له من فتور أمه تجاه الموضوع وتحفزها لخلق المشكلات مع أسرة فتاته وعاد إلى مقر عمله سعيداً وتواصلت الرسائل بينه وبين فتاته فوجد نفسه، وهو القلب الذى لم يخفق بالحب لأحد من قبل، غارقاً حتى الثمالة فى حبها على البعد وتعجل عقد القران واستدعاءها إلى مقر عمله رغم اعتراضات أمه الصاخبة على ذلك وتهديدها له بغضب السماء عليه اتباعا لغضب

قلب الأم عليه! وتم عقد القران بالتوكيل ولم يكن وكيله فى ذلك أبوه وإنما شقيقه الأصغر وسافرت إليه عروسه فنهل رحيق الحب الذى لم يذق له طعماً من قبل حتى ارتوى.. وأمل أن تنسيه سعادته الجديدة آلام حياته الماضية.. وتحمل صابراً لوم الأم وعتابها ومطالبها المادية التى انهالت عليه كالمطر بعد الزواج كأنما تريد أن تجرده من أية مدخرات قد تستمتع بها هذه الوافدة الغريبة على حياته، ولم يرفض لأمه طلباً.. وحتى المبلغ الشهرى الذى فرضت عليه أن يعين به شقيقه الأكبر نجم الأسرة على مطالب أسرته وأبنائه استجاب له راضيا ولم يتساءل: ولماذا لا تطالب شقيقه ببذل بعض الجهد فى تجارته وبالاعتدال فى إنفاقه لينقذ تجارته.. بدلاً من أن يطالبه هو بتحمل عواقب استهتاره وكسله ونومه حتى الضحى كل يوم؟

وأنجب طفلاً جميلاً سعد به كل السعادة.. فلم ينغص عليه فرحته به سوى صوت أمه فى التليفون ينصحه بألا ينجب غيره حتى لا يكثر الأبناء وتكثر المطالب!

ولم يجرؤ أن يطالبها بتوجيه نفس النصيحة المخلصة لشقيقه الأكبر الذى أنجب ثلاثة أطفال فى خمسة أعوام من الزواج أو لشقيقه الأصغر الذى أنجب طفلين.. وتساءل ساخطاً:

- إلى متى يا أمى؟

ولم يكن ينوى اتباع نصيحتها. لكن الأقدار شاءت له ألا ينجب غيره، فقد تعرضت زوجته لمتاعب صحية بعد الولادة انتهت بعدم قدرتها على إنجاب مزيد من الأطفال.

وبعد عامين آخرين انتهى عمله فى الخارج.. واستعد للعودة إلى وظيفته الأصلية، وعاد فأقام مع أبيه وأمه بصفة مؤقتة وراح يبحث عن شقة قريبة منهما لينتقل إليها مع زوجته، فإذا بأمه تقيم الدنيا وتقعدها مطالبة إياه بالاستمرار فى الحياة معها ومع أبيه إلى الأبد فهما وحيدان وقد استقل الأكبر والأصغر بحياتهما.. ولم يعد لهما سواه ليعيش بينهما.

وحار فيما يفعل فى أمره، فزوجته الشابة ترى أن من حقها أن يكون لها عشها الصغير الخاص بها.. وأمه ترى فى قبوله لرغبتها عقوقاً لها ونكراناً لجميلها.. ولهذا فمن واجبه أن يقهر زوجته على العيش معه فى مسكن أبيه وقبول سيطرتها الكاملة على حياة الجميع.. وتعجب لماذا لم يسمع شيئا عن العقوق حين استقل أخواه بحياتهما؟ وطلب من زوجته أن تتحمل التجربة لمدة ستة شهور فإذا نجحت استمر فيها وإن فشلت حقق لها رغبتها.

واستجابت الزوجة راغمة لمطلب زوجها.. فلم يخل يوم من أيام ذلك من أسباب للكدر والنزاع الدائم بين أمه وزوجته، ولم

يدخل إلى زوجته بعد هذا الاستقبال الحافل إلا وتلقته بالبكاء والعويل.. والمطالبة أن يجد حلا لهذا الوضع المستحيل وضاق باستمرار هذه المتاعب فرجا أمه أن تسمح له بما سمحت به لشقيقيه.. وهو أن يعيش فى مسكن قريب منها فأبت عليه ذلك وسقطت مريضة أو متظاهرة بالمرض كعادتها كلما أرادت أن تفرض إرادتها عليه. واستعان بأبيه على أمه فلم يجد لديه معينا، ولجأ إلى شقيقيه مستعينا بهما على أمه فلم ينجحا فى مهمتهما ولم يثابرا عليها اتقاء لغضب الأم المسيطرة.

وعاد من عمله ذات يوم فوجد زوجته تبكى وتتشنج وأمه تصيح فى غضب. فما أن رأته حتى تحول هياجها إلى بكاء وشكوى من عدوان زوجته عليها.. ووقف حائراً بين المرأتين وكل منهما تطالبه بأن يحكم بالعدل بينهما فلا يجد ما يقوله إلى أن فقدت زوجته صبرها.. وصفعته بالعبارة المؤلمة: أنت لست رجلاً ولن أعيش مع ظل رجل ثم جمعت ملابسها وحملت طفلها الصغير وغادرت المسكن وأمه تطالبه بألا يمنعها من الخروج وأن يدعها لتتعلم الدرس القاسى فى بيت أبيها!

واختفت نسائم الراحة الأخيرة من حياته.. وخلا عليه البيت من زوجته وطفله الصغير، وما أن حدث ذلك حتى برئت أمه من مرضها المزعوم وتفجرت فيها دماء الصحة والعافية.. وفشلت المساعى مع والد زوجته لإعادتها إلى

بيتها إلا إذا «تحرر» من سيطرة الأم، واتخذ لنفسه مسكناً مستقلاً.. وباح لأبيه بخواطره راجياً إقناع أمه بحقه فى الحياة المستقلة، فازدادت إصراراً واعتبرت الأمر قضية حياة أو موت بالنسبة لها.

ومضت أسابيع وهو محروم من زوجته وطفله لا يراهما إلا فى زيارات قصيرة لبيت أسرتها.. وكلما عاد من زيارتها مهموما افتعلت أمه أسباب المرح.. وقامت لخدمته بنشاط وحيوية كأنما تذكره بأن حياته لم تنقص شيئاً ذا بال!

واختفت الشكوى الدائمة من المرض من على لسانها وحلت محلها.. الحيوية.. والنشاط.. والمرح.

وراح يراقب مرحها وحيويتها فى صمت وهو يتساءل للمرة العشرين:

ومـاذا عنى يا أمى؟.. ولماذا أنا وحدى من بين أبنائك الذى ينبغى عليه دائما أن يضحى باعتباراته الشخصية من أجلك وبلا نهاية؟

وطال انتظار والد فتاته لأن يحسم أمره ويتخذ لنفسه مسكناً مستقلاً ويخرج من دائرة العجز أمام أمه ثم فقد صبره أخيراً فاستدعاه ذات يوم وطلب منه أن يطلق زوجته.. ورفض أن يصدق أن هذه هى رغبة أم طفله الوحيد.. وأصر على أن يسمع منها هذه الرغبة.. فجاءت إلى مجلسه فى

صالون أسرتها وكررتها عليه فغامت الدنيا أمام عينيه.

وبعد أيام طلق زوجته.. وأعطاها كل حقوقها راضياً وعاد إلى بيته متقبضاً.. ومتجنباً الحديث مع أحد فإذا بأمه تستقبله بزغرودة مدوية آذت أذنيه كأنما انغرست فيهما شوكتان مؤلمتان.. وهى «تبشره» بأنها سترشح له من هى أجمل وأفضل منها!

ووقف ينظر إليها صامتاً وحزيناً وأحزانه تتفاعل داخله ثم نحاها عن طريقه ودخل إلى غرفته صامتاً وهو يكرر السؤال الحائر:

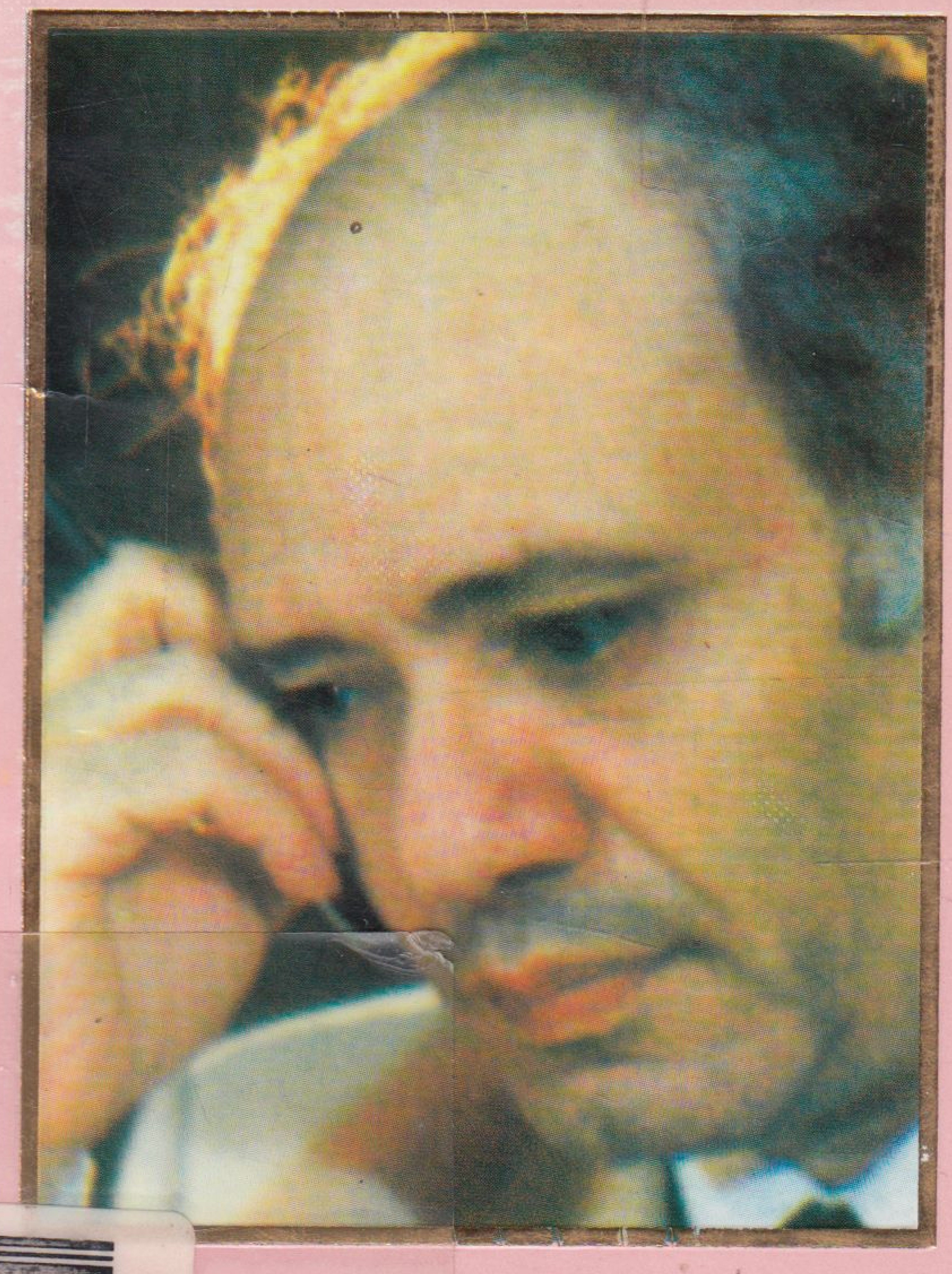
لماذا أنا وحدى ياأمى؟ وإلى متى؟

ولم يتوصل إلى جواب مريح رغم طول التفكير، وفى غمرة أحزانه قفز إلى مخيلته وجه طفله الحبيب فتعلق به كآخر أمل فى استعادة السعادة المفقودة وتركزت عليه كل آماله فى إصلاح كل ما تراكم فى حياته من مرارات وأخطاء و«أقسم» لنفسه.. إن نجح طفله فى استمالة قلب زوجته للعودة إليه من جديد أن يحطم قيود عجزه أمام أمه الجبارة.. وأن يهيىء لنفسه وزوجته عشاً صغيراً جميلاً وألا ينهزم مرة أخرى أمام جبروت أمه وتسلطها عليه بالمرض أو التظاهر به.. ومع أدائه لكافة حقوقها عليه.. دون تضحية بحقه هو فى السعادة.

نعم دون تضحية بحقه فى السعادة.. ومهما كانت العواقب.. مهما كانت العواقب!

واستراح للقرار الخطير، الذى تجرأ على اتخاذه فهدأت نفسه بعض الشىء.. ولاح له فى أزمته الحالكة بصيص ضوء جميل!

الفهرس



«أمن أجلنا يارب جعلت الليل شديد العمق
أمن أجلى جعلت الهواء دافئًا .. ونور القمر
إلىّ من النافذة فيغمرنى بنبض من السحر
رب إن كان للحب حدٌ فهو من صنع البشر ،
صنعك ، ومهما يظهر حبى آثمًا فى أع
فألهمنى الإيمان بأنه عندك طاهر نقى» .

من مناجاة للقس البروتستنتى بطل رواية «السيمفونية الر
الفرنسى أندريه جيد يتحدث فيها عن حبه الطاهر للفتاة العمياء «جرترود»